الباب الثالث

فى صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار

اعلم أن البحر المحيط الذى أحاط بالدنيا والأرض فى وسط البحر كالكرة فى غدير ماء، وهو البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن، وبحر الهند خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر القلزم خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر فارس خليج منه يمتد بعضه إلى البصرة إلى عبّادان وسيراف وكرمان والبحرين وجزيرة قيس والدَيْبُل إلى بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى سرنديب والصولیان.

وكل هذه البحار التى ذكرتها وما لم أذكرها، إنما أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط.

وأما بحر الخزر وبحر خوارزم وبحر أخلاط وبحر أرمية والبحر الذى عنده مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد، وإنما هى ماء له مادة من الأنهار الكبار وأكبرها بحر الخزر فأما البحر الأسود الذى يخرج منه بحر الروم وبينهما مجمع البحرين الذى عرضه ثلاث فراسخ وطوله عشرون فرسخًا والله أعلم.

وفيه الجزر والمد من طلوع الشمس يعلو البحر الأسود، وينصبُّ فى بحر الروم من مجمع البحرين، حتى يفيض فى بحر الروم، ويخرج على جوانب البحر حتى يصل المد إلى خلف قسطنطينية، مسيرة شهور فى ساعة واحدة، حتى إلى وقت الظهر، فإذا استوت الشمس فى كبد السماء غاص البحر الأسود فعاد ينصبُّ الماء من البحر الأخضر الذى هو بحر الروم فى البحر الأسود إلى وقت مغيب الشمس فيستوى البحران، ثم يعلو البحر

الأسود فيعـود الماء يجرى من مجمع البحـرين إلى بحر الروم إلى نصف الليل، ثم ينصب أيضًا فى البـحر الأسود إلى الصبـاح، يمد ويجزر كل يوم مـرتين، وكل ليلة مرتين، ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد سئل عليه السلام عن الجزر والمد فقال: ملك على قاموس البحر إذا وضع رجله فيه فاض وإذا رفعها غاص[1].

ويخـرج من البحـر الأسود، وإنما يـعرف بالأسود لأن مـاءه فى رؤية العـين كالحـبر الأسود، فإذا أخذ منه الإنسان فى يده فهو أبيـض صاف، إلا انه أمرٌ من الصبر مالح شديد الملوحة، فـإذا صار ذلك المـاء فى بحر الروم تراه أخـضر كالزنجـار والله أعلم لأى شىء ذلك.

وكذلك أيضًا فى بحـر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصـفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، وخليج أزرق كالنيل والله أعلم من أى شىء تتـغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف كسائر المياه.

ويخرج من البحر الأسود أنواع السمك الكبار يبعث الله عز وجل سباعًا من سباع البحر فيخرجونها وآلافًا لا عدد لها يخرجونها فى مجمع البحرين فيصطادها الناس.

وهى أنواع كثيرة السمكة الواحدة مائة منّ ومائتا منّ أو أكثر أو أقل، ولولا أن الله عز وجل يسلط عليها سباع البحر لما خرجت فيخرجها رزقًا لعباده.

ويخرج الله تعالى من البحر الأسود سمكًا كبارًا كالجبـال يتبعها سمك أكبر منها ليأكلها فتفـر من بين يديه فتعبر فى مجـمع البحرين وتأتى السمكة الكبـرى لتعبر فى طلبها فـيضيق عنها مجمع البحرين لكبرها وعظم جسدها فترجع إلى البحر الأسود وعرض مجمع البحرين ثلاث فراسخ.

ولقد كنت فى مجمع البحرين فى سفينة فـخرجت سمكة من البحر مثل الجبل العظيم فصـاحت صيحة لم أسـمع قط أوحش منها ولا أهول ولا أقوى منهـا فكاد أن ينخلع قلبى وسقطت على وجهى أنا وغـيرى، وألقت نفسها فى البحـر واضطرب البحر علينا وعظمت

(١) هذا من الإسرائيليات الدخيلة على الفكر الإسلامى، وهو مخالف للحقائق العلمية.

أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز وجل، وسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالبغل[١].

ورأيت فى البحر أيضًا سمكة كالجبل يبدو رأسها وظهرها وذنبها. ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار، كل عظم فى رؤية العين أكثر من ذراعين، وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قسمتها نصفين[٢].

ويخرج فى ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر لأنها تأكل العنبر، وذلك أن العنبر يخرج من بحر الظلمات من عيون فى جبال البحر كما يخرج القير، فتأكله تلك السمكة وما كان مثلها من السمك، فإذا أراد الله تعالى أن يخرج ذلك العنبر من جوفها رزقًا لمن شاء من عباده، سلط الله عليها سمكة من سمك البحر أكبر منها تطردها من البحر الأسود حتى تخرجها إلى بحر الروم إلى جانب من جوانب خليج من خلج البحر، فتلقى نفسها فى موضع قليل الماء فلا يمكنها الحركة فيدخل الناس إليها بالسفن فيشقُّون جوفها ويأخذون ذلك العنبر منه، وربما خرجت قطعة من العنبر الذى لم تأكله دواب البحر وقد اجتمع فى بعض جبال البحر ثم ضربته الأمواج فيخرج إلى البر قطع كبار يكون وزن الواحدة قنطار وأكثر وأقل فيأخذها من قدرت له، وهو أطيب رائحة من العنبر الذى وجد فى بطن السمك فيما يقال، والله أعلم.

وقد يخرج الله عز وجل من البحر الأسود سمكًا طوالاً عظامًا تعرف بالمنارة لطولها، يقال: إنها تخرج فى البحر إلى جانب السفينة الكبيرة فتلقى نفسها على السفينة فتحطم السفينة وتهلك كل من فيها، فإذا أحسوا بها أهل السفينة قبل أن تلقى نفسها صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا بالدبادب والطبول والصنوج ونفخوا الصور والبوقات ونفروا الطسوت والأسطال والأخشاب، فربما إذا سمعت تلك الأصوات نفرت وصرفها الله عز وجل عنهم بفضله ورحمته[٣]. وفى البحر من عجائب المخلوقات ما ليس له شبيه.

ولقد رأيت يومًا فى البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلى قد خرج ذنب حية

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ج ١ ص ٢٠٢، المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف.

(٢) المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف. وقسمتها: شطرتها. (٣) المستطرف ص ٥٣٦.

صفراء منقَّطة بسواد، طولها مقدار باع تطلب أن تقبض على رجلى فبعدت منها وأخرجت الحية رأسها كأنه رأس أرنب من تحت ذلك الحجر، فسللت خنجراً كبيراً كان معى فطعنت به رأسها فأدخلت رأسها تحت الحجر. ثم قبضت على الخنجر فلم أقدر أن أخلِّصه منها، وكلما جررته وجذبته لم أقدر على تخليصه منها، فأمسكت مقبض الخنجر بيدىَّ جميعه وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأنى أقطع به شيئًا، فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر، وإذا بها خمس حيات ورأس واحد فعجبت من ذلك[1].

فسألت من كان هنالك عن اسم هذه الحية فقالوا: هذه تعرف بأم الحيات، وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تقبض على السمك فى البحر وتأكله، و [أنها] تعظم تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعًا، وأنها تقلب الزوارق وتأكل كل من قدرت عليه من أصحابها، وأن الحديد لا يقطعها ولا يؤثر فيها[2].

ثم بعد ذلك وقعت واحدة من هذه الحيات فى صنارة غلام كان معى فأخرجها إلى البر فرأيت منظراً عجيبًا، فمها تحت رأسها فى الموضع الذى يمكن أن يكون فيه الدبر، وحشاها فى دماغها، وأدخلوا سكينا فى فمها وأخرجوا حشوتها فماتت، فسلخوا جلدها فكان أرق من قشرة البصلة خفيفًا لينًا، فكنت أجعله على يدى وأجر عليه السكين الحاد المرهف الذى يحلق الشعر فلا يؤثر فيه ولا يعلق منه بشىء، وكان لحمها كإلْيَةِ الغنم المطبوخة ليس فيه عظم ولا يصلح للأكل، إلا أنهم يصطادون به السمك فى الصنارة، فالسمك يحبه ويصطاد السمك به.

ولقد رأيت يومًا وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل فى البحر قريب من الساحل، فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عدداً من النارنج الطرى الأحمر الذى كأنه قد قطع الآن من شجرة، فقلت فى نفسى هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه فقبضت منها واحدة فإذا هى متصلة بالبحر وإذا بها حيوان يضطرب فى يدى ويتحرك، فتركته ونظرت إليه فإذا فمه فى موضع العرجون الذى يتعلق منه النارنج، وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل شيئًا، وهو لين

(١) المستطرف ص ٥٣٦.
(٢) المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف وما بين حاصرتين منه.

فلففت كم ثوبى على يدى وقبضت عليه مرة أخرى وعصرته وجررته فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم أقدر أن أقلعه من مكانه، فأخرجت سكينًا كان معى ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه، فلم يؤثر السكين فيه شيئًا، وعالجت كل واحدة منها فلم أستطع لها على شىء فتركتها عجزًا منها، وهى من عجائب خلق الله تعالى ورأيت جميعها أحياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح إلا الفم، والله أعلم لأى شىء تصلح[1].

ولقد كنت مرة فى زورق انظر إلى ماء البحر إذ مرت بى قطعة شبكة مقدار ذراع فى مثله، مفتولة الخيوط مربعة العيون ظاهرة العقد كأنها قطعة من شبكة صياد، فأخذتها من البحر فاضطربت فى يدى، فألقيتها فى البحر فسبحت وذهبت وغاصت فى البحر وهى من حيوانات البحر فتعجبت من ذلك.

ولقد وجدت يومًا عنقود عنب أسود على جانب البحر كثير الحب أخضر العرجون كأنه قطف من كرمة الآن، فأخذته وذلك فى زمان الشتاء وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب، لأننى كنت فى بعض بلاد البربر فى بلدة يقال لها تِمْسَامَان كانت لبعض قرابتى، وكنت نازلاً عنده وهى على جانب البحر، فأخذت ذلك العنقود وقد فَرِحْت به فرمت أن آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها وهى لينة ولكن لم أقدر أن أقلعها من العنقود كأنها من الحديد قوة، فتعجبت منه وجذبت الحبة كثيراً بقوة فانسلخت قشرة الحبة وهى كقشر لبة العنب سواداً، وداخلها على هيئة حبة العنب إذا قشرت قبل أن تنضج بيضاء يبين فى داخلها عجمها، وتبين العروق فى لحم تلك الحبة لا يغادر من العنب شيئًا، فقيل لى هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك، ويخرج من البحر إذا كان وقت الخريف وهاجت الرياح واضطربت الأمواج فيه، فيظهر الله تعالى على جانب البحر أحمالاً من حيوان يشبه جامات الزجاج التى تكون فى الحمامات شديدة البياض مدورة ينفذ فيها البصر ثخانا لينة، فتتحرك ثم تموت بسرعة، فتكون على شاطئ البحر أحمالاً يترامى بها الصبيان فتنقطع ولا تصلح لشىء، والله أعلم أى منفعة فيها.

ويكون أيضًا فى البحر نوع من حيوان يشبه رأسه رأس العجل، وله أنياب كأنياب

(١) المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المصنف.

السباع، وجلده له شعر كشعر جلد العجل، وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجلى الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت خرج منَ البحر وألقى نفسه فى البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل لم يدخل البحر، حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فيبرأ، ولا يجد للنقرس ألما ما دام ذلك النعل فى رجله[١]. وهو من عجائب الدنيا.

وفى البحر أنواع من الحيوانات تطير لها أجنحة عجيبة تطير بها، ولقد رأيت سمكة بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء البطن، خرجت من البحر وطارت فى الهواء ما شاء الله تعالى، ثم ألقت نفسها إلى البحر فسألت عنها فقالوا: اسمها الخطَّاف.

ويكون فى بحر الروم سمك طويل يكون طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب كأنياب الفيل الصغير، تؤخذ أنيابه وتباع فى بلاد الروم وتحمل إلى سائر الدنيا، وهو أحسن وأقوى من ناب الفيل، ويظهر فى بعضه إذا شق نقوش عجيبة يسمونها الجوهر، ويتخذون من تلك الأنياب نصلاً للسكاكين يسمونها العجم دندان ماهى[٢]، ينقشون فيه سائر النقوش، وهو مع قوته وحسن لونه وجوهريته ثقيل الوزن كأنه الرصاص[٣]. ويدبغ الروم جلده فيكون أبيض كالثلج لينًا قويًا ويقدونه فى عرض الإصبع كقد العنان، يكون طول الشراك الواحد عشرين باعًا وأكثر وأقل، يبيعونه فى بلاد بلغار وبلاد الصقالبة، وهو من أقوى الجلود كأنه الحديد فى القوة مع لينه ونعومته، ويأكلون لحم ذلك السمك ويزعمون أن لحمه من أطيب لحوم السمك.

وفى بحر الروم سمك يسمى الرعاد وتوجد هذه السمكة بنيل مصر على الصفة المذكورة، ومن خواصه أن يعمل من جلدة طاقيَّة وتلبس للصداع فيسكن، وإذا كان فى شبكة فكل من يجر تلك السمكة أو يضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئًا كما يرعد صاحب حمى الربع إذا كان مفلوجًا، فإذا أزال يده زالت الرعدة عنه، وإن أعاد يده إلى الحبل والشبكة أو شىء يتصل بتلك الشبكة عادت إليه الرعدة[٤]. وهى أيضًا من عجائب الدنيا.

---

(١) المستطرف ص ٥٣٧.
(٢) دندان ماهى: أى أسنان السمك.
(٣) المستطرف ص ٥٣٧
(٤) المستطرف ص ٥٣٧

وفى بحر الروم سمك صغير يكون كالذراع يسمى بُلْبُ إذا اصطادوه ومسكوه ويقى فى أيديهم ما شاء الله لا يموت ولا يزال يتحرك ويضطرب فيقطعونه قطعًا ما بين صغار وكبار، وهو يثب ويضطرب، وإن جعلت منه قطعة على النار وثب إلى خارج النار وربما أصابت وجه الإنسان وإن جعلت فى القدر فى ماء حار كالنار وهى مقطعة، وربما قلبت القدر، ويحتاجون إذا طبخوه أن يثقلوا القدر بحديد ثقيل أو صخرة ثقيلة حتى ينضج، ومهما لم ينضج لا يموت ولو قطع ألف قطعة[١]. وهو من عجائب المخلوقات.

وفى بحر الروم أيضًا حيوان كأنه قلنسوة الأتراك البيض التى تتخذ بدربند، طوالاً محددة الرءوس من اللبد الأبيض تلبس لأجل المطر، كأن ذلك الحيوان قلنسوة وفى داخلها مثل المصارين كثيرة طوال متعلقة وليس لذلك الحيوان رأس ولا عينان ولا فم، وإذا وقع فى شبكة اضطرب فيخرج من مصارينه شىء أسود كالحبر يسود له الماء، ورائحة ذلك السواد كريهة، وإذا أصاب ذلك الماء الثوب صبغه ولم يخرج بغسل ولا غيره، ويؤخذ لحمه ويؤكل، وهو كغضروف الجمل السمين ولا تؤكل مصارينه[٢]. وهو من العجائب.

وفى مجمع البحرين على جانبه الشرقى فى الصخرة التى وصل إليها موسى ويوشع ونسى عندها الحوت، وكان الحوت مشويًا، قد أكلا نصفه الأيمن طولاً مع نصف رأسه، وعينه الواحدة اليمنى، وأخبره الله تعالى أن موضع الخَضِر فى المكان الذى يصير الميت فيه حيًا، فلما وصل إلى الصخرة عاد نصف السمكة المشوية المأكول نصفها حيًا، وانسلّ ذلك على صورة نصف السمكة بعين واحدة الجانب الأيمن كأنه قد أكل، بقى حشوته عليها شوك أضلاعها، وجلد رقيق يحفظها، والنصف الأيسر صحيح وهو من أطيب السموك. والسمكة منه طولها أربعة أشبار فى عرض شبر، ويكون صغارًا وكبارًا، ونسلها من مجمع البحرين عند تلك الصخرة وقرب منها تحمله اليهود والنصارى مقدَّدًا إلى بلادهم، ويتبركون به وهو من أطيب السموك.

ويخرج من بحر الظلمات أنواع من سباع السمك لها عدوان كعدوان الذئاب والأسود الضارية وأشد وأدهى وأضر منها نوع يسمى الكوسج، يكون كالسمك طويل طوله عشرة

(١) عجائب المخلوقات ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) عجائب المخلوقات ج ١ ص ٢٠٢.

أذرع وأقل فى فمه فى الحنك الأعلى سبع صفوف أسنان أحدُّ من المناشير الفولاذ وأقطع وأقوى، وفكه الأسفل أقصر من الفك الأعلى، وفيه صف واحد من الأسنان أحدُّ من السيف المرهف، يقطع الآدمى نصفين، وأى حيوان ظفر به قطعه أسرع من لمح البصر.

ويخرج أيضًا من الأنهار الكبار فيهلك من ظفر به من الناس، وأكثر ما يخرج إلى الأنهار فى شدة الحر فى حزيران وتمّوز، حتى أن فى نهر البصرة يقطع أرجل السقايين وأيديهم، إذا استقوا فى الماء.

وهناك أيضًا فى البحر سبع من السمك يعرف بالتنين، أسود طويل كالثعبان العظيم، أحمر العينين، له أنياب كأسنة الرماح أشر من الكوسج، وأشد وأقوى عدوانًا، يفر الكوسج منه فيما يقال، والله أعلم.

وهو يثب من البحر على مَنْ كان فى الشاطئ، فيفترسه، وهو آفة عظيمة، وإذا أخذ وهو صغير ووقع فى شبكة قتلوه، ويطعمون لحمه لمن به الفالج ولمن غلب عليه البرد والرطوبة فيستريح ويبرأ لحرارة لحمه.

وفى البحر أيضًا أنواع من السباع لا أعرف أسماءها، وفى ذلك البحر رأيت سمكة كأنها الترس العظيم مدوَّرة كبيرة بيضاء لا تشبه السمك، ولها رأس فى جسدها وفم وأنياب وذنب أيضًا قصير عريض، وجانبان عريضان رقيقان كأنهما أجنحة لها وبها تتحرك فى الماء، وهى مدورة كالترس، ولها بطن كبير، رأيتها وقد شقوا بطنها وأخرجوا حشوتها وفيه كبد كبيرة وقلب ورئة حمراء كحشوة الغنم الكبير السمين، ولها شحم كثير، ولحمها أبيض لا يشبه لحم السمك، فسألت عنها فقالوا هذه تسمى البقرة.

وفى بحر الروم من الجزائر كثير جدًا منها جزيرة تسمى بسردانية، وهى عظيمة جدًا فيها أمة من الكفار خلق كثير شجعان، والبحر الذى هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية، متصل بالبحر الرومى الذى فى قِبليّ بلد قسطنطينية.

وفى بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية، فيها جبل قريب من البحر يخرج منه نار تضىء بالليل إلى عشرة فراسخ، وقد رأيت جزيرة صقلية لما ذهبت إلى الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وأخبرنى ببغداد الشيخ الإمام الزاهد العالم العلامة أبو القاسم بن الحكم الصقلى حين سألته عن تلك النار، قال: إن تلك النار تضىء على عشرة فراسخ، لا يحتاج أحد معه فى تلك المواضع إلى ضوء ولا إلى سراج فى طريق ولا فى قرية لكثرة ذلك الضوء، ويخرج من تلك النار جمر كبار كأعدال القطن يتقطع فيقع بعضها فى البر فيصير حجراً أبيض خفيفًا يطفو على الماء لخفته، والذى يقع فى البحر يصير حجراً أسود مثقّبًا يحك به الأرجل فى الحمام، يطفو على الماء أيضًا.

وإن وقع جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غباراً كالكحل، ولا يحرق الحشيش ولا الثياب إلا الحجارة والحيوان، فهذه النار تشبه نار جهنم التى قال الله عز وجل: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (سورة التحريم: ٦) أعاذنا الله تعالى منها ومن عذابها، آمين، يا رب العالمين.

وفى ذلك البحر جزائر يسكنونها المسلمون وجزائر لا يسكنها أحد، وفيها جزيرة كبيرة يقال لها جالطة مملوءة بأغنام سمان ما لها صاحب تقصدها السفن يأخذون منها ما لا نهاية له ويذبحونها ويملأون بها السفن من لحومها ولا تفنى لكثرتها.

وأما فى بحر الهند والصين، ففيهما آلاف من الجزائر الكبار، بعضها مسكونة وبعضها غير مسكونة، وفيها من أنواع النعم والنبات والحيوانات ما لا يعد ولا يحصى.

وكنت بمصر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة واجتمعت بها بالشيخ أبى العباس الحجارى، وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب، فقلت له: يا أبا العباس، إنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب والآن أريد أن أسمع منك شيئًا عن عجائب خلق الله تعالى، وكان الشيخ الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفِهْرِىّ حاضراً، فقال أبو العباس: قد رأيت أشياء كثيرة ولا يمكن أن أحدّث بها لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب، فقال الشيخ الإمام أبو بكر: يكون ذلك من العوام الجهال، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائز والمستحيل، وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحب التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى فى عجائب مخلوقاته، فقال له أبو العباس: دخلت جزيرة سرنديب وهى جزيرة عظيمة فى وسطها جبل الراهون الذى نزل عليه آدم عليه السلام وحول ذلك الجبل أشجار كثيرة كبار وغياض كثيرة، فى كل موضع من تلك الغياض

بين تلك الأشجار حيات كبار كجذوع النخل، الحية تبلع الآدمى والبقر والأغنام، وتلتف حول شجرة من تلك الشجر العظام فتكسِّر فى جوفها عظام ذلك الحيوان الذى ابتلعته حتى تهضمه، فلا يمكن أحد من الناس أن يصل إلى ذلك الجبل، وكنت سمعت أن عند تلك الجزيرة دهنًا إذا دهن به الإنسان لا يعمل الحديد فيه شيئًا، فأهديت إلى أخت الملك هدية وتوسلت بها إلى الملك فأعطانى حجرين، كل واحد كالبيضة الصغيرة الواحد أبيض منقّط بحمرة والآخر أصفر منقّط بسواد، وقال: يؤخذ الشيرج فيغلى حتى يذهب نصفه ويجعل هذان الحجران فى الدهن، ومن ادهن بذلك الدهن لم يؤثر الحديد فيه شيئًا حتى يغسل جسده، ومن شرب من ذلك الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبنًا ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة.

وقال: كان غلام قد شرب من هذا الدهن فكان أصحابى هؤلاء يجربون السكين على ذراعيه وحلقه فلا يؤثر الحديد فيه شيئًا.

وأعطانى ملك آخر من ملوك الصين دهنًا آخر مثل الدبس، إذا دهن به جرح زال ألمه والتحم فى وقته قبل أن يخاط فتق مثله، فقلت: يا أبا العباس، فلِمَ لَمْ تأت منه بشىء فإنه كان أنفع لك من كثير من المال؟ فقال: جئت منه بكثير ولكنه ذهب فى جملة من أموالى ذهبت لى فى بحر الصين والهند إلى أن وصلت إلى بحر القلزم عشر سفن، وإنما بقى معى سفينة صغيرة كانت برسم المطبخ، وكان فيها جماعة من خدمى فسلَّمَنا الله عز وجل فيها بعدما ذهبت ذخائرى وأموالى.

وكنت سمعت أنه أهدى لصاحب مصر الأفضل ابن أمير الجيوش من أنواع ذخائر الصين ما لا يعرف له قيمة، فقال له صاحب مصر: أريد منك أن تجمِّل بلدى.

وسمعت أنه كان فى جملة ما أهدى إلى الأفضل قطعة عود هندى أسود يختم كالشمع، ورنتها خمسون منًا لا قيمة لها، وأهدى من قصاع الصين وأوانيها ما يشبه الياقوت حسنا من الجنس المخرَّم، واتخذ أبو العباس فى مصر والقاهرة حمامات وخانات ودكاكين ما يدخل عليه كل يوم جملة من المال، وكان له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجوارى: صينية وهندية وحبشية وسرنديبية وصولية من جزيرة الصولِيَّان وهى من أحسن جزائر الهند، زمانها كله ربيع ليس فيها صيف ولا شتاء ولا تسقط أوراق الشجر فيها، وفيها من

نعم الله تعالى ما لا نهاية له، وكان أولاده يتكلمون بألسنة جماعة، وكان بعضهم يأنس بى وأعطانى من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعًا زرقًا وحمرًا كلها عليها تصاوير الصين ذهب أحسن من الديباج الرومى رحمة الله عليهم.

ويكون فى جزائر بحر الصين طائر يعرف بالرخ يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع، ذكر ذلك الجاحظ فى كتاب «الحيوان» وكان قد وصل إلى المغرب رجل من التجار ممن سافر إلى الصين فى البحر وأقام بها مدة، ووصل إلى بلدة المغرب بأموال عظيمة، وكان عنده أصل ريشة من جناح الرخ، وكان يسع فمها قربة من الماء، كان الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف الرجل بعبد الرحيم الصينى، وكان يحدث بالعجائب، فذكر أنه سافر فى بحر الصين وألقتهم الريح إلى جزيرة عظيمة فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب، فرأوا فيها قبة عظيمة أعلى من مائة ذراع لها لمعان وبريق فتعجبوا منها، فلما دنوا منها وإذا هى بيضة الرخ فجعلوا يضربونها بالفئوس والخشب والحجارة حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل فتعلقوا بريش جناحه فجرُّوه، فنفض جناحه فبقيت هذه الريشة عند غلمانى خرج أصلها من لحم جناحه ولم يكمل بعد خلقه.

قال: فقتلوه وحملوا ما قدروا عليه من لحمه ورحلوا، وقد كان بعضهم طبخ فى الجزيرة قِدرًا وحركوها ببعض عيدان الحطب الذى طبخوه به وكان فيهم مشايخ فلما أصبحوا رأوا المشايخ قد اسوَدت لحاهم ولم يشب بعد ذلك مَن أكل مِن ذلك الطعام فكانوا يقولون: إن ذلك العود الذى حركوا به القدر من شجرة الشباب، والله أعلم.

قال: فلما طلعت الشمس رأوا الرخ قد أقبل فى الهواء كالسحابة العظيمة وفى رجليه قطعة حجر كالبيت العظيم، أكبر من السفينة فلما حاذى السفينة ألقى ذلك الحجر، وكانت السفينة مسرعة بسعة من الأثقال عليها الشراعات، فوقع الحجر فى البحر وسبقت السفينة، ونجانا الله عز وجل.

وفى جزائر الصين والهند الكركدن حيوان طوله مائة ذراع وأقل وأكثر له ثلاثة قرون، قرن بين عينيه وقرنان على أذنيه يطعن الفيل فيأخذه فى قرنه ويهلكه ويبقى بين عينيه مدة، ويبقى ولد الكركدن فى بطن أمه أربع سنين، إذا تم له سنة يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى فى الشجر مما يصل إليه.

فإذا تم أربع سنين وقع من بطن أمه، ومر كالبرق حتى لا تدركه أمه مخافة أن تلحسه بلسانها، لأن لسانها فيه شوك كبير غليظ إذا لحست به حيوانًا أزالت لحمه عن عظمه فى لحظة واحدة.

وملوك الصين إذا عذبوا أحدًا سلموه إلى الكركدن يلحسه فتبقى عظامه ليس عليه من اللحم شيء.

وفى بلاد الزنج حُمر، كل حمار كأنه الثوب العتابى مخطط أبيض وأسود بخطوط مستوية أحسن سوادًا وأحسن بياضًا من الإبريسم فى العتابى البغدادى أو الخراسانى، وكان منها حمار بمصر فمات وجلده عندهم محشو بالقطن يخرجونه فى يوم الزينة وهو من عجائب الدنيا.

وقرن الكركدن إذا شق طولاً يخرج فيه أنواع من الصور كالطاووس والغزال وأنواع الطير والشجر وصورة بنى آدم وغير ذلك من عجائب النقوش، يتخذون منه صفائح على سروج الملوك وفى مناطقهم، وهذا أيضًا من أعجب العجائب.

وقال لى رجل شريف يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد، إنه كان فى بحر الهند فرأى طاووسًا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألوانًا، فكبرنا لحسنه، وجعل يسبح فى البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص فى البحر[1].

وفى نيل مصر حيوان يعرف بالتمساح كبير يكون طول جسده ستة أذرع وأقل، وأكثر، وذنبه مثل ذلك، وظهره وبطنه كالسلحفاة ويداه ورجلاه قصار على صورة الضب وفى فمه ثمانون نابًا: أربعون فى الفك الأعلى، وأربعون فى الفك الأسفل، يتحرك فكه الأعلى وفكه الأسفل، عظامه متصلة بصدره، وليس له دبر، وله فرج ينسل ولا يتغوط، وهو شر من كل سبع فى الماء، وإذا شبع وامتلأت معدته خرج إلى بعض الجزائر واستقبل الشمس وفتح فاه فيدخل فى معدته أنواع من العصافير كالقنبر، فى رءوسها عظام كالمناقير فيأكلون ما فى معدته، فإذا شبعت خرجت ودخل غيرها حتى لا يبقى فى معدته شيء، وربما أطبق

(١) المستطرف ص ٥٣٧ نقلا عن المؤلف.

فمه على بعضها فيطعن فى معدته برءوسها التى فيها تلك العظام، حتى يفتح فاه فيخرج، فسبحان الله العظيم ما أكثر عجائبه، وهو كثير فى نيل مصر.

ورأينا أيضًا فى نيل مصر طيراً أبيض الرأس أسود الجسد يقال له عقاب الماء كأنه النسر فى كبره يطير على النيل ثم يزخ[1] نفسه فى الماء فيخرج وفى مخالبه سمكة كبيرة يقولون إنها من أطيب السمك الذى فى النيل، فيصعد بها فى الهواء، فيجتمع إليه الطير تأكل من سمكته التى فى مخالبه فيصيح ذلك العقاب: الله! فوق الفوق! بكلام مليح يسمعه الناس من بعد، وهو نوع كثير على نيل مصر.

وأما بحر الخزر الذى عليه طبرستان ويمتد إلى ناحية جرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر، ويمتد إلى باب الأبواب، فإنه بحر صغير يقال إن دوره ثلاثمائة فرسخ أو نحوها، ومادته من الأنهار العظام.

وفيه جزائر جماعة، منها: جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شىء من الحيوان، وجزيرة أيضًا يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيات والطير يفرخ بين الحيات ولا يضر فراخ الطير، وكنا نعبر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة يأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والثعابين ولا تؤذى أحداً.

وهناك جزيرة سوداء كالقير، يخرج منها ماء مر مالح منتن، ويخرج مع ذلك الماء حجارة مربعة كأنها الصفر الأصفر الجيد، يأخذها الناس مثاقيل للموازين.

وفى مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقير ينبت فيها الحشيش، وفيها أنواع من الوحوش، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفط الأسود والأبيض، وهى قريبة من باكو، من عمل شروان، ويظهر فى الليل فى تلك الأرض، والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء تشعل ولا تحرق الحشيش، ولا حرارة لها، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت، يراها الناس من بعيد، وليس لها فى النهار أثر، يُصطاد الغزلان فى تلك الأرض فيقطعون لحم الصيد ويجعلونه فى جلده ويشدون الجلد عليه على أنبوبة قصب مثقوبة ويدفنون الجلد باللحم فى ذلك التراب الأسود، فيغلى ويخرج الزبد من تلك

(١) زخ فلان وثَب. وزَخَّ الشىءَ: دفعه.

الأنبوبة، كما يخرج من القدر، وإذا نفد الزبد نضج اللحم، فيخرجون ذلك الجلد صحيحًا، واللحم نضجًا حارًا كما يكون فى القدر ولا حرارة فى تلك الأرض، وهذه من عجائب الدنيا، وتلك النار تشبه نار المعدة.

ويوجد على ساحل البحر وجزائره حجارة محكّ الذهب أنواع، وكان لى صديق من أهل أسْتَراباذ يقال له أبو الحسن على بن عبيدان، رجل معروف، دخل غلامه إلى جزيرة من تلك الجزائر التى فيها محكّ الذهب فأخرج منها حجارة كثيرة وكان منها حجر واحد عليه مكتوب محمد وعلى بخط أبيض من أحسن الخطوط وبذلت له فيه وزنه من ذهب فلم يفعل.

وينصبُّ فى ذلك البحر نهر عظيم يسمى إتل يجىء من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل الدجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه إلى البحر سبعون فرعًا، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه فى زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشى الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألفا وثمانمائة ونيفا وأربعين خطوة، وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبه الآخر، السمكة فيها مائة مَنٍّ وأكثر وأقل، وهو طويل له خرطوم فيه فمه صغير يسع الأصبع، ليس فيه شوك وليس له سن ولا له عظم، يخرج من معدته الغراء يحمل إلى جميع الآفاق ويشوى ويطرحون تحته الأرز، كما يكون تحت اللحم الأرز، كما يكون تحت الحمام، فيكون أطيب من كل لحم يؤكل فى جميع الدنيا وذلك الأرز الذى يكون تحته أعذب من جميع الأرز الذى يكون تحت الدجاج المسمَّن، ودهنه ولحمه لا زفر فيه ولا رائحة البتّة، وهو من عجائب الدنيا.

ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين وخمسمائة، اجتمع إلى الناس من أهل العلم وغيرهم، وفى جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة، فألقى عندى سوار ذهب وزنه أربعون مثقالاً، وقال: ما أصنع بهذا السوار؟ فقلت لا أدرى ما تصنع به لست بصائغ حتى أعلم ما تعمل به.

فقال، اشتريت سمكة بطسوج فوجدت هذا السوار فى بطنها، فقلت: عرّفه، فقال: قد عرّفته ثلاث سنين أشده فى عكازى وأدور به فى المساجد والأسواق والبيوت والطرقات وفى دور الأمراء فلا أجد له من يدعيه، فقلت: خده أنت، فإنه مال حلال وأنفقه على نفسك.

فغضب من كلامى وقال، والله لا ترانى آكله، فقلت لماذا تقول هذا الكلام؟

قال، لأننى رجل صانع أعمل الخفاف وآخذ ما يكفينى، فقلت له: افتد به الأسرى من أيدى الترك، ففرح، فقال، بارك الله عليك، فرجت عنى كربة، فقلت: وليس ها هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟.

فقال، ها هنا من أهل العلم من يقول أعطنا إياه ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله.

وسمعت ببلغار وهى مدينة فى آخر بلاد الإسلام فى الشمال، هى فوق سقسين بأربعين يومًا، يكون النهار فى الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل فى الشتاء عشرين ساعة، والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبر.

ولقد مات لى بها ولد، وكان فى آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ويبقى الميت كالحجر.

ويخرج التجار من بلغار إلى ولاية من الكفار يقال لهم إيسوى منه يجىء القندز الجيد، ويحملون إليهم السيوف التى تتخذ فى أذربيجان نصالاً غير مجلية تشترى فى أذربيجان أربعة سيوف بدينار ويسقونها سقيا كثيراً حتى إذا علقوا النصل بخيط ونُقر، طنّ كثيراً، فذلك الذى يصلح لهم فيشترون بها القندز، ويذهب أهل إيسوى بتلك السيوف إلى ولاية قريبة من الظلمات مشرفة على البحر الأسود، فيبيعون تلك السيوف منهم بجلود السمّور، ويأخذون تلك النصول فيلقونها فى البحر الأسود، فيخرج الله تعالى لهم سمكة كالجبل تتبعها سمكة أكبر منها أضعافًا تريد أكلها فتلقى نفسها قريبًا من البر بحيث لا يمكنها الرجوع، فيدخلون إليها بالسفن ويقطعون من لحمها شهوراً حتى يملئوا بيوتهم ويدخرون ما لا نهاية له من لحمها ودهنها، وربما يكثر ماء البحر فترجع تلك السمكة إلى البحر.وقد ملأت مائة ألف بيت أو أكثر من لحمها.

وإذا كانت السمكة صغيرة يخافون أن تصيح إذا وصلوا فى موضع القطع من لحمها إلى عظامها، يخرجون أولادهم ونساءهم إلى موضع بعيد من البحر حتى لا يسمعوا صوتها.

ولقد حدثنى بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقة متصل بجسدها يستر قبلها ودبرها كالإزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهى تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها، وتصيح، وتفعل كما تفعل النساء فى الدنيا حتى ماتت فى أيديهم، فتبارك الله، ما أكثر عجائبه وخلقه، وما لم نشاهد ولم نسمع به أكثر.

وعلى بلغار ذهب ذو القرنين إلى يأجوج، فيما يقال، والله عز وجل أعلم، وهذا قليل من كثير، وقد اقتصرنا فيه، والله أعلم، وهو القادر على كل شىء لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

الباب الرابع

فى صفات الحفائر والقبور وما تضمنته من العظام إلى يوم البعث والنشور

قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (سورة عبس: ٢١) وقال ﷺ: «القبر أول منزل الآخرة» والقبور، وإن تساوت فى الظاهر، فهى مختلفة الأحوال فى الباطن، وقال ﷺ «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» فهى للمؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى نعيم وراحة، ولمن ختمت له بالشقاوة عذاب ومحنة ونار مؤججة، وقد يظهر الله عز وجل، فى الدنيا بعض ما أعده من العذاب وما أعده الله لأوليائه من الكرامة.

وسأنبئك، يا أخى بما شاهدته من كلام الحاكين للفريقين:

أما كرامة الله عز وجل، فإن فى بلدى الأندلس، واسم بلدى غرناطة، وهو بلد كبير عظيم، يقال إنه كان فى مدينة دِقْيَانُوس، ملك أصحاب الكهف.

وبالقرب من المدينة بثلاثة فراسخ مدينة صغيرة يقال لها لوشة إلى جانبها جبل فى حضيضه مثل الغار كهف الشمس تزاور عن بابه ذات اليمين وإذا غربت تقرضه ذات الشمال، وفى داخله فتية عددهم سبعة موتى، ستة منهم نيام على ظهورهم، وآخر نائم على يمينه، وعند أرجلهم كلب، لم يسقط من أعضائهم ولا من شعورهم شىء، والناس يغطونهم بأنواع الثياب ويزورونهم من جميع البلاد، وعلى الكهف مسجد ولهم هيبة عظيمة، وعلى الكهف نور عظيم كثير، والدعاء عندهم مستجاب وهذه كرامة الله ظاهرة لعباده فى الدنيا، وهذه الكرامة الظاهرة تدل على إكرام الله تعالى لأرواحهم فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ (سورة الواقعة: ٨٨، ٨٩) هذا للمقرب من المؤمنين بعد الموت وقبل القيامة.

وقال ﷺ : «أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تعلف من ثمار الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش» وهذه كرامة للمؤمنين.

وأما ظهور الهوان والعذاب فى حق الظالمين مما يظهر فى قبورهم من النار والدخان، فقد رأيت فى بلدى، غرناطة، قبر رجل من الأمراء، كان أميراً ظالمًا غاشمًا قاتلاً ظلمًا وعدوانًا، كان اسمه قِراح وأنه لما مات بنى على قبره قبة عظيمة وعمل على قبره ألواح من الرخام الأبيض كالعاج حُسنًا فتقطع ذلك الرخام، واسود واحترق واسودت القبة من الدخان الذى كان يخرج من قبره حتى صار كالأتون، ولم يدفن أحد بقربه ميتًا، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الأتون السواد، وهذا عذاب ظاهر، وأمثاله فى الدنيا كثير.

وقد روى فى الخبر أن عبد الله بن عمر أراد سفراً فخرج وحده على ناقته فى زمان النبى ﷺ ، فعبر على بدر فى الموضع الذى قتل فيه كفار مكة، قال عبد الله بن عمر: فانشقت الأرض وخرج منها آدمى أسود يشتعل ناراً من قرنه إلى قدمه، وفى عنقه سلسلة يجرها خلفه وهو يصيح: يا عبد الله، أسقنى، يا عبد الله أسقنى، فلا أدرى هل عرفنى أم كان ينادى على غير معرفة، فنفرت ناقتى منه، وخرج فى إثره رجل فى يده طرف السلسلة وجعل يجره إليه ويقول: يا عبد الله، لا تسقه، هذا عدو الله، أبو جهل، وجعل يضربه بسوطه حتى أدخله القبر، وانطبقت الأرض عليه، ففزع عبد الله بن عمر ورجع عن سفره وأخبر النبى ﷺ بما رأى، فنهى النبى ﷺ أن يسافر أحد وحده، وقال ﷺ : «الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب».

وقد وصل إلينا بسخسين سنة ثمان وعشرين وخمسمائة شاب من أهل جيلان، ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن على، وكان من أهل الصلاح والدين، فلزم مسجداً بالقرب من محلتى التى فيها دارى، فكان مشتغلاً بقراءة القرآن والصوم والعبادة فقلت له:

يا عبد الواحد، لم جئت إلى سخسين وتركت بلدك وأهلك ومالك وأنا أسمع من الغرباء أن أباك من أصحاب الأموال فقال:

يا سيدى، حديثى عجيب، كان لى ابن عم شاب كان يخدم أمير ولايتنا فمات ابن

عمى، فدفناه وحزنت عليه، وأصبحنا يوم ثانى دفنه لزيارة قبره، أنا وإخوته وأقاربه، إذ سمعنا فى قبره صوتًا، كأنّ صندوقه يضرب بالخشب، ففرحنا وقلنا كان قد أخذته ريح السكتة فدفناه حيًا، فاجتهدنا حتى أخرجنا صندوقه، ففتحناه، وإذا بالشاب ملقى على ظهره، وكفنه عند سُرته قد اسود حتى صار كالليل البهيم، وقد خرجت عيناه على خديه، وعلى صدره حية سوداء، مقدار ذراعين فى غلظ الساق، وفمها فى فمه، وهى تحرك رأسها فى فمه، كأنها تلقى فى فمه شيئًا، وتضرب بذنَبها الصندوق يمينًا وشمالاً، فكان ذلك الصوت صوت ذنبها، فضربها أخو الميت بحربة فولاذ كانت بيده، فزلّت عن الحية ولم تؤثر فيها شيئًا، ودخلت الحية فى صدر ذلك الشاب الميت وجميع بنى عمه كل من كانت فى يده حربة طعن تلك الحية فلم تؤثر فيها شيئًا، فقال رجل من أهل العلم كان معنا: ويحكم! هذه مَلَك الزبانية، قد وكّل بهذا الميت، فردوا عليه التراب، ففزعت وهربت من بلدى ودخلت سفينة ووصلت إلى هذه البلدة، ولا أرجع إلى بلدى أبدًا، لما رأيته من ابن عمى من العذاب، فأقام عندنا مدة ثم ذهب إلى الحج، وكان من الصالحين رحمة الله عليه.

وقد ذكر الشعبى فى كتاب «سير الملوك»: أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه كان يومًا جالسًا بظاهر الكوفة إذ أقبل أعرابى من اليمن فسلم عليه وهنأه بالخلافة وقال: يا أمير المؤمنين، جئت إليك من اليمن لتعلمنى بما علمك الله مما أنتفع به فى دينى.

فقال أمير المؤمنين: من أى بلاد اليمن أنت، يا أخا العرب؟

فقال: من حضرموت.

فقال له على: أتعرف الأحقاف؟.

فقال: لعلك تريد حفيرة هود النبى عليه السلام؟.

فقال على: نعم!.

فقال: دخلتها يا أمير المؤمنين فى حال شبابى، أنا وصاحب لى فنزلنا مائة درجة محفورة فى الجبل حتى أفضينا إلى أزج عظيم فيه سرير من الرخام عليه رجل كقطعة الجبل وجسده على هيئة الأحياء، لم يتغير، جميل الوجه مع عظم جسده، وعليه ثياب يمانية، وعند رأسه لوح رخام مكتوب فيه [بسيط]:

هذا النبى التقى المهتدى الهادى
إلى الجبابرة الغاوين من عادِ
أن يعبدوا الله لا يبغوابه بدلا
ويخلعوا كل ذى ضد وأندادِ
فخالفوه وردوا قوله سفها
وخوفوه بإرهاب وإبعادِ
فأرسل الله ريحًا فى عجاجتها
لها صرير بإبراق وإرعادِ
فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم
قد يذنب العبد والمولى بالمرصاد

ففرح به أمير المؤمنين على عليه السلام، وأكرمه وعلمه، وكان يأكل معه ولا يفارقه حتى انصرف، والله أعلم بكل شىء.

حفيرة شداد

وحكى عن الشعبى، رحمه الله: أن فى جبل حضرموت حفائر قبور الملوك المتقدمين من العاديين، وغيرهم من الجبابرة، وأن الله سبحانه وتعالى قد خص ولد عاد بعظم الأجساد، وشدة البأس، وكثرة القوة وسعة الملك، فوجدت حفيرة شداد فى الجبل ينزل إليها فى أدراج محفورة، علو كل درجة عشرة أذرع، وهى أدراج كثيرة، فوصلوا إلى أزج تحت الأرض عظيم فيه سرير من رخام منقوش بالذهب وعليه شداد بن عاد كأنه قطعة من جبل مطليًا بالمُرّ والصبر والمغرة لم يسقط من جسده شىء، وعند رأسه لوح من ذهب فيه مكتوب:

[مجزوء الرمل]:

أنا شداد بن عاد
صاحب القصر العميد
وأخو الشدة والبأ
ساء والعمر المديد

دان أهـــل الأرض طـــرا لـــى
من خـــوف وعـــيـــدى
وقـــهـــرت الناس جـــمـــعـــا
كلـهم لى كـــالعـــبـــيـــد
وأتـى هـــود بـرشـــــــــد
فـــــــردنا قـــــــول هـود
وعـــــصـــــينا وأطـعنا
كـل جـــبـــار عـنـيـــد
فـــأتتنا صـيـــحـــة تهـــوى
مـن الأفق الـبـــعـــيـــد
تـركـــــتنا مـــــثل زرع
وسط بـيـداء فى حـــصـيـــد

فأخذوا لوح الذهب وانصرفوا وقد تعجبوا مما رأوا

حفيرة مرتد:

وحُكى أيضًا أنهـم وجدوا أرجا عظيـمًا تحت الأرض بدرج فنزلوا فـيه فى درج كثـير تحت الأرض ووجدوا فيه سريرًا من رخام مزخرفًـا عليه رجل كأنه قطعة جبل لم يتغير من جسده شيء، على هيئة الأحياء وعند رأسه لوح فيه مكتوب:

[كامل]:

من كـــان يـنكرنى لطـول زمـــانى
بعـــد الـبلى وتغـــيـــر الـحـــدثانِ
فـــأنا ابن شـداد المـــملك بعـــده
مـائتـين عـامـــا بعـدها مـــائتـان
أيام أجنـاد الصـحـــار فـجـــاسم
من بالعـــروض إلى ذرى سـفـوان

وجَـديسُنا المسـتـأسدون وطَسْـمُنا
أهل الحـجـاز إلى مـصب عـمـان
فـإذا ركـبت رأيت حـولـى منهم
فـوق الصـوافى ألف ألـف عنان
دانت لى الأمـم الذين تعـاقـدوا
من بعـد شـداد علـى الطغـيـان
وأهل المشـارق والمغـارب إذ بغوا
وتمـسـكوا بالكفـر والعـدوان
وجـمـعت مـالاً لا يقـادرُ قـدره
فـكنـزته لـنوائـب الـحـدثـان
فى اللحـد تحت شـراسـه وقـراره
أرجـو الخلود ولات حـين أوان
ولسـوف يبـدو بعـدنا لمـعـاشـر
مـتـواصلين على التـقى إخـوانِ
يأتيـهـم ذو المكرُمـات مـحـمـد
بقـوارع تتلـى من الـقـرآنِ
يا ليـتنـى كنت المـقـدم قـبله
فى كل مـعـتـرك ويوم طعـانِ
يا من يـرانى ثاويا بـحـفـيـرة
عِشْ مُـؤمنًا مُـتَـجنِّبَ الكُـفْـرَانِ

ووجدوا فى جبال مكة أزجا تحت الأرض فيه صورة رجل وامرأة من صخر من أجمل الصور، وعند رأسها لوح رخام مكتوب عليه هذه الأبيات:

[خفيف]:

أنا مـأوى الفخـار ساف بن عـمرو
وربيـع الأنام فى كل عـصـرِ

كنت فى جُرهُم أعد رئيسا
وإذا ما أمرت فالأمر أمرى
كان حكمى عليهم وعلى من
حج ذا البيت فى البرية يجرى
فهويت التى ترون أمامى
فتبطنتُها على غير مهر
من رآنى فلا يلم بأنثى
ذات بعل ولا يلم بِقَهْرِ

وكان ذلك الرجل، ملك جرهم، عشِق نائلة فزنى بها فى الكعبة فمسخهما الله حجرين ليعتبر بهما، فأخرجتهما قريش فجعلوا أساف على الصفا، ونائلة على المروة ليعتبر بهما من رآهما، فلما طال مكثهما عبدوهما[1]، والله أعلم.

وكان شداد بن عاد قد أرسل إلى العراق ابن عمه، الضحاك بن علوان فى عشرة آلاف من الجبابرة، وكان فى جملة عسكره رجل مؤمن يكتم إيمانه، قد آمن بهود عليه السلام، يقال له لام بن عامر وكان الضحاك يعذب الناس بأنواع العذاب ويطبخهم فى القدور، فنهاه لام بن عامر، وقال له: إن هؤلاء الناس هم آدميون مثلنا، وقد فضلنا عليهم بالقوة والمُلْك، والله تعالى لا يرضى بما تفعله بعباده، فغضب الملك الضحاك، وقال له:

أظن أنك على دين هود، وقد خالفت الملك فى دينه، فخاف لام على نفسه، فخرج بأمواله وخدمه وأولاده إلى ناحية الشمال كأنه يطلب الصيد، فغفل عنه الضحاك مدة، وقد ذهب لام بن عامر حتى جاوز أرض الصقالبة وباشغرد، ووصل إلى أرض فى مغرب بلاد الروم، قريبة من البحر الأسود فى موضع كثير الأشجار والنبات والعيون والوحوش طيبة الهواء، ووجد فيها معادن الرصاص الأسود، فاتخذ قبة من الرصاص، كالجبل، وأمر أن يدفن فيها، وكتب على حجر عند رأسه هذه الأبيات بالعربية.

[خفيف]:

أنا لام بن عامر المعتاض
من ظلام الإشراك بالإخلاصِ

(١) انظر فى ذلك: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ - ٨٣، والقاموس (أ س ف).

كنت بالله مـــــؤمنًا رب إدريـــ
ـس وهود مـؤمنًا بالقـصـاصِ
قـــــــــائلاً لا إلـه إلا هـو
ربـى الـذى إليـــــــه منـاص
فـأراد الضـحـاك ذو الكفـر منى
أن أضـاهيه فى العـمى والحيـاص
فـتـركـت البـلاد طرا وخـليت
له عـن مـــحلتى وعـــراصى
وسكـنت القـــفـار دهرًا طـويلاً
خـائفًـا هاربًا مـن أهل المـعـاصى
وبنـيت الـذى ترون بعـــــون الْـ
ـلّه ذى الطول من صفاح الرصاص
وأمـــــرت الـبنـين أن يـدفنـونى
جـوفهـا فى مـلاحفـى وقمـاصى
سـوف يـأتى بعـدى بدهـر رسـول
من بـنى هـاشم الـذرى والمـناص
قَـــانِتٌ عـــابـد رءوف رحـــيم
باليـتـامى والـبـائسين الخـمـاص
ليـتنى قـد عُـمّـرْت حـتى أراه
كى أنال المنـى وفـضل الخـواص

ثم إن الضحاك سأل عن لام بن عامر، فأخبروه أنه قد ذهب إلى ناحية الشمال بحشمه وأولاده، فأرسل خلفه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين، فخرج أحدهما قاصدًا إلى بلغار، والثانى خرج وذهب إلى باشغرد.

فلما قتل الضحاك ـ قتله أفريدون فيما يقال والله أعلم ـ أقام أولئك الجبابرة فى أرض بلغار وفى باشغرد، وقد رأيت قبورهم فى باشغرد سن أحدهما طولها أربعة أشبار، وعرض

السن شبران، وقد كان عندى فى باشغرد نصف أصل الثنية أخرجت لى من فكه الأسفل والنصف الثانى تَقَطَّع من القدم، فكان عرض نصف الثانية شبرا ووزنها ألف ومائتا مثقال، أنا وزنتها وهى الآن فى دارى بباشغرد، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعًا.

وفى بيت أحد أصحابى فى باشغرد عظم عضد أحدهم طوله ثمانية أذرع، وعرض أضلاعهم كل ضلع ثلاثة أشبار كاللوح الرخام، وأخرج لى نصف رسغ يد أحدهم قد تآكل بعضه بالأرض، والذى يلى الرسغ الأسفل صحيح، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدى جميعا.

وفى بلغار أيضًا من عظامهم مثل هذا، وهو كما ذكره الشعبى فى «سير الملوك» والله عز وجل، قد قال: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ (سورة الأعراف: ٦٩).

ولقد رأيت فى بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلاً طويلاً كان طوله أكثر من سبعة أذرع، كان يسمى دنقى، كان يأخذ الفرس تحت إبطه، كما يأخذ الإنسان الحَمَل الصغير، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جسده وأعصابه كما يقطع باقة البقل.

وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعًا يحمل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا فى يده، لو ضرب بها الفيل قتله، وكان خيِّرًا متواضعًا، كان إذا التقانى يسلّم علىّ ويرحّب بى ويكرمنى، وكان رأسى لا يصل إلى حِقوه، رحمه الله، ولم يكن ببلغار حمام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب، فكان يدخل فيها، وكان من أعجب بنى آدم لم أشاهد قط مثله، وكان له أخت على طوله ورأيتها مرارًا عديدة فى بلغار، وقد قال لى فى بلغار القاضى يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة الطويلة قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، كان من أقوى أهل بلغار، ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات فى ساعته.

ومن عجائب القبور والموتى:

أن فى أرض مصر بيتًا تحت الأرض فيه رهبان من النصارى، وفى البيت سرير صغير من خشب تحته صبى ميت ملفوف فى نطع قديم مسردق مشدود بحبل، وعلى السرير مثل

البطانية الكبيرة من خزف مزجج أخضر، وفى البطانية أنبوب من نحاس فيه فتيل، إذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجًا، خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الفائق حتى تمتلئ تلك البطانية وينطفئ السراج بكثرة الزيت، فإذا انطفأ لم يخرج من الدهن شىء، وإذا أخرج ذلك الصبى الميت من تحت السرير، لم يخرج من الزيت شىء، والبطانية يرفعها الإنسان فلا يرى تحتها شيئًا ولا موضعًا فيه ثقب، وأولئك الرهبان يبيعونه، ويشتريه الناس منهم ينتفعون به، فيما يقال، وهذا من عجائب الدنيا.

وفى طريق قونيا غار تحت الأرض يسكنه جماعة، وفيه بيت كبير فيه رجال موتى، بعضهم قيام، وبعضهم ركوع وبعضهم سجود، فلا يدرى من أية أمة هم، وعليهم ثياب لا تبلى، والنصارى والمسلمون يتبركون بهم، وأمرهم شائع يراهم الناس، ولقد أخبرنى رجل من أهل باشغرد اسمه داود بن على قال:

دخلت ذلك الغار فرأيت هؤلاء الرجال فيه، فجئت إلى رجل منهم راكع، فأخذت بأسفل عنقه، ورفعته حتى استوى قائمًا ثم تركته فعاد راكعًا كما كان، وعندهم بيت كبير فى داخل الغار فيه موتى كثيرة من جملتهم امرأة عندها مهد فيه طفل قد انحنت عليه كأنها ترضعه وهى ميتة لم يسقط من جسدها شىء.

وفى زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفر باليمن فى صنعاء حفيرة فوجدوا رجلاً جالسًا عليه ثياب لم تبل، ويده على رأسه كهيئة الأحياء، فأزالوا يده عن رأسه، فسال الدم من جرح كان فى رأسه، فتركوا يده فعادت على الجرح، وانقطع الدم، وفى يده خاتم من فضة مكتوب عليه: عبد الله بن الثامر، فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كعب الأحبار عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا من جملة القوم الذين كانوا آمنوا بالحواريين الذين كانوا على دين عيسى، عليه السلام، وكان له أصحاب فأحرقهم ملك اليمن فى الأخدود الذين ذكرهم الله عز وجل فى القرآن فقال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (سورة البروج: ٤- ٧) وقتل عبد الله بن الثامر ودفن على هيئته، فأمر عمر أن يرد كما كان وأن يخفى مكانه حتى لا ينبشه الأعداء، ففعلوا.

وفى زمان عمر بن الخطاب أيضًا، فتح أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه مدينة خراسان،

فدخل مدينة السوس فوجد فى قلعتها بيتًا عليه أقفال محكمة ففتحه، فوجد فيه صندوقًا من رخام فيه رجل ميت صحيح الجسد، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك فسأل عمر بن الخطاب كعب الأحبار، فقال له: ذلك، يا أمير المؤمنين، دانيال النبى عليه السلام، كان قد سباه بُخْتنصر، لما خرب بيت المقدس، وكان عنده حتى رأى بختنصر رؤيا ففزع منها ونسيها فسأل عنها جميع العلماء، فقالوا لا علم لنا بالغيب، وأنت قد نسيتها، فكيف نعرفها نحن.

فقال له دانيال: إن ربى قد أخبرنى رؤياك وتأويلها، فقال بختنصر، : فأخبرنى يا دانيال.

فقال: رأيت صنمًا رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، أعلاه من ذهب وصدره من فضة، وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من خزف ورأيت حجراً صغيراً قد نزل من السماء على رأس الصنم، فحطم جميع جسد الصنم، وخلط بعضه ببعض حتى صار ترابًا، وعظم ذلك الحجر حتى ملأ ما بين السماء والأرض.

فقال: صدقت والله يا دانيال، فأخبرنى ما تأويل هذه الرؤيا، فقال:

أما الصنم، فإنه ملككم، معاشر العجم، فالذهب الملوك، والفضة أتباعهم، والنحاس خدامهم، والحديد جنودهم، والخزف صغارهم، والحجر نبى اسمه محمد، ﷺ، يخرج فى آخر الزمن يحطم ملككم حتى لا يبقى له أثر على وجه الأرض، ويملأ دينه وتملك أمته ما بين السماء والأرض.

فأطلقه بختنصر وأطلق من كان معه من بنى إسرائيل، وأحسن إليه، وكان لا يقطع أمراً دونه.

ثم إنّ بختنصر رأى أيضًا رؤيا فنسيها، فسأل عنها دانيال، فقال له دانيال:

رأيت شجرة عظيمة لها سبعة أغصان، على كل غصن من أغصانها من أنواع الحيوانات، ما لا يعد ولا يحصى، ثم رأيت ملكًا نزل من السماء، فنزع أغصان تلك الشجرة وتركها جذعًا قائمًا.

فقال له بختنصر: هذه رؤيا، فما تأويلها؟ فقال له دانيال:

أما الشجرة فإنها أنت، وأن الله تعالى سيمسخك على صورة كلّ حيوان كان على تلك الشجرة، وتبقى سبع سنين، وأول ما تمسخ على صورة العقاب، وآخر ما تمسخ على صورة الذبابة، ثم ترجع إلى قصرك ويردك الله على صورتك التى كنت عليها وتؤمن بى ثم تموت من ليلتك.

ففزع وقال بختنصر: يا دانيال، ما علامة المسخ؟ فقال:

إذا رأيت خضرة الريش على ذراعيك، فاستخلف ابنك على مُلْكِكَ حتى تعود بعد سبع سنين.

فلما كان ذات يوم، نظر بختنصر إلى ذراعيه فرأى خضرة الريش تحت الجلد فى ذراعيه، فخرج إلى قومه وأحضر أمراءه وابنه واستخلفه على مملكته وعهد إليه أن لا يفارقه دانيال حتى يعود، فإن دانيال أعلم أهل الدنيا.

ثم انتفض فصار عقابًا، وطار فى الهواء والناس يرونه، فغاب عنهم سبع سنين يمسخ فى سائر الحيوانات حتى مسخ ذبابة، فرجع إلى قصره، وجلس على سريره، وانتفض فصار آدميًا كما كان، فسجد له أهل مملكته، وفرحوا برجوعه، فحمد الله وأثنى عليه، وشهد شهادة الحق، وآمن بدانيال، وآمن معه قومه.

ودخل داره، فمات تلك الليلة، ومات بعد دانيال، فكانوا يستسقون بجسد دانيال، يخرجونه إذا قحطوا.

فتعجب عمر مما حدث به، وكتب إلى أبى موسى أن يدفنه تحت الماء، بحيث لا يصل إلى جسده إنسان، فأمر أبو موسى بنهر السوس فحُوِّل من مكانه، وحُفِرَ فى وسط ذلك النهر، وأطبق على ذلك الصندوق لوح رخام ملصق بالرصاص، وبنى عليه ضريحًا محكمًا بالصخر والنورة، حتى لا يصل إليه الماء، ثم أجرى النهر على قبره.

وبنى بقربه، على جانب الشط فى محاذاة القبر مسجداً كبيراً يعرف بمشهد دانيال، وعلى قبر دانيال وحوله أنواع السمك، صغار وكبار، ولهم حد محدود إذا تعدته سمكة وأخذت لم يضر أخذها شيئًا، وإذا أخذ منها سمكة فى حرم دانيال، أصابت الآخذ آفة عظيمة، وفيها سمك كبار كالدواب، قد أنِسُوا بالناس وإذا دخل فى ذلك الماء إنسان، أو

أدخل يده، جاءت السمكة إليه تأخذ الخبز من يده، ويقولون إنها لا تأكل إلا ممن ماله حلال.

قال: فربما يجيء إليهم بعض الظلمة ويلقى إليهم الخبز، فيغوصون فى أسفل النهر ولا يتعرضون له بلقمة، ويأتى الرجل الذى ماله حلال برغيف واحد فيتقاتلون على ذلك الرغيف، وقد تركوا أرغفة كثيرة من مال ذلك الظالم.

وفيها سمكة كبيرة كالغنمة الكبيرة فى أذنها حلقة ذهب، فسألت عنها لم جعلوا فى أذنها حلقة؟ فقالوا: جاء بعض الأمراء وألقى طعامه إلى السمكة، فنفرت ولم تأكل منه شيئًا، فغضب وضرب هذه السمكة بحربة فجفت يده فى الحال والوقت، فتاب إلى الله وتضرع إليه وخرج من المظالم، وقال: إن صحّت يدى جعلت فى أذن تلك السمكة قرطًا من ذهب، وكانت تلك السمكة مجروحة معروفة بين السمك، فدخل بعدما صحت يده وأمسكوا له السمكة حتى جعل تلك الحلقة فى أذنها، وذلك أيضًا من عجائب الله عز وجل.

وذلك السمك لا يفر من الناس، وقد أنس بهم، يزورون مشهد دانيال من جميع المواضع، وعلى ذلك المشهد أوقاف كثيرة، وخادم يخدم الزائرين والغرباء المجاورين، والله أعلم والحمد لله رب العالمين.

وفى المغرب الأعلى، قريبًا من القيروان، قبرُ رجل صالح يقال له محرز المعلم، وكان من الزهاد، مستجاب الدعوة، وكل من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئًا، فإذا ركبوا على البحر، وهاج البحر وعصفت الرياح، وكثر الموج، أخرجوا من تراب قبره شيئًا وألقوه فى البحر، ودعوا الله تعالى سكن البحر وزالت الرياح وسهل عليهم السفر، وهذا معلوم فى أرض المغرب.

وكان رجل من أصحابنا قد أخذ من ترابه وجعله مع ذهب كثير فى هِمْيان[1] كان معه ودخل البحر فأخرج الهميان وهو على جانب السفينة، والشراع يطير بالسفينة كالطير، فطرحه فى حجره ونسيه وقام على غفلة فسقط الهميان فى البحر، وذهب فصاح الرجل

(١) الهميان: كيس للنفقة يشد فى الوسط.

وبكى وانقطع به الإياس ولم يكن له فى السفينة إلا ذلك الهميان، لأن أهل المغرب لا يتجرون فى طريق الحج، وإنما يخرجون بالذهب للنفقة، فأيقن بالفقر وأيس من وجود ذلك الهميان لأنه فى وسط البحر والسفينة مسرعة كالطير الطائر، فلما كان العشى رفعوا دَقَل[1] السفينة، ووجدوا ذلك الهميان بذهبه ملفوفًا على رجل السفينة، فأخذه صاحبه وفرح به وتعجب الناس، وقالوا: هذا ببركة تراب قبر الزاهد، محرز رحمه الله.

وفى وسط مصر مسجد فيه قبر لرجل يقال له عفان، وهو بين طريقين فى ركن وله شبابيك من حديد كل من مرّ به من الناس، يقول: رحمك الله، يا عفان.

فأعجبنى ذلك وسألت علماء مصر عنه، فقالوا: هذا عفان، كان رجلاً خياطًا، فاشترى يومًا غلامًا زنجيًا شابًا فجعل يخدمه، فلما كان يومًا أمره عفان أن يسجر التنور ليخبز فيه، فسجر التنور وشهقت النار فى التنور، ففرح الأسود، فطرب لشهيق النار، ومضى إلى ثياب عفان، التى كان يتجمل بها فألقاها فى التنور وعمامته وكل ما كان له، فرأى عفان ما صنع العبد، فرزقه الله صبرًا وحلمًا، فأخرج العبد وزوده وأعتقه وأشهد على عتقه، ورجع إلى البيت، وقد سمع الناس بما فعل الزنجى، وما فعل عفان فى حقه، فوقع لعفان فى قلوب الناس محبة لما يريده الله تعالى به من الخير، فجاء إليه رجل من كبار التجار، وقال: إن لى بضاعة تصلح للهند، وقد اخترت أن تذهب بها، فما ربحت، فلك كذا وكذا، واتفقا وجهزه ذلك التاجر، وخرج عفان ومعه أموال كثيرة لذلك الرجل، ووصل إلى عدن وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم ركب فى البحر وذهب إلى بلاد الهند، وباع ماله الذى كان معه وربح ثم انصرف، ونزل السفينة، فعصفت الريح عليهم فألقت السفينة إلى بلاد الزنج، فخاف التجار على أنفسهم واضطروا إلى الدخول خوفًا من الغرق.

فلما وصلوا إلى البر استقبلهم الزنوج، وجعلوا يأخذون رجلاً رجلاً يحملونه إلى الملك، ويردونه إلى السفينة، ولا يكلمه الملك بشىء حتى أخذوا عفان فأدخل على الملك.

فلما رآه الملك قام إليه وقبل يديه ورجليه ووقف بين يديه، ففزع عفان، فقال الملك

(١) الدَّقَلُ: خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يُمَدّ عليها الشِّراع. وتسميه البحرية: الصارى.

للترجمان: قل له: ألست عثمان الخياط بمصر الذى اشتريت غلامًا زنجيًا واحرق ثيابك وأعتقته وزودته، ولم تضر به ولم تؤذه، وقد أساء إليك؟

فقال عفان: نعم أيها الملك، فقال الملك: أنا عبدك الذى أعتقتنى، وأعطانى الله هذه النعمة ببركة إحسانك إلى، وجميع هذه المملكة لك، فاجلس عندى وأنا ملك هؤلاء وأنت ملك علىّ، فحمد الله تعالى عفان، وقال: أيها الملك أنت لى كالولد، وبلادكم لا تصلح لى لكثرة الحر وعدم الجنس.

فأمر الملك له بسفينة وحمّل معه من الأموال ما لا نهاية له ووهب الجميع له وبعث معه من عبيده من يوصله إلى بلاده، وخرج بما لا يدرى نهايته.

وكان عفان رحمه الله لا يرد سائلاً وعمل من الدور والخانات والدكاكين والحمامات كثيراً، وأوقف الكل على الفقراء المسلمين، وهذه داره جعل فيها هذا المسجد، وحفر فيها قبره، وكان يصلى فى قبره كل ليلة، وجميع أمواله الآن وقف على قبره، فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة يحضرون الوكلاء ومعهم الثياب للرجال والصبيان والبنات والدراهم، ويدخلون المسجد ويأتون الفقراء من خارج الشبابيك الحديدية التى جعلت فى حيطان المسجد، فيقسمون على الفقراء أموالاً كثيرة، وكل من عبر عليه يقول: رحمك الله يا عفان، كل يوم وكل ليلة آلاف من النساء والرجال والصبيان.

وكنت أقف عند قبره وأرى كثرة من يدعو له بالرحمة كل ساعة، حتى الصبيان الصغار، أبناء سنتين وخمس سنين، فكنت أتعجب مما سهل الله له من الخير حيًا وميتًا، ولقد حدثتُ عنه بمصر رجلاً من أهل المغرب وصل إلى مصر وأراد الحج وأن يجاور بمكة، وكان عنده آلاف من الأموال، فجاء إلى إمام جامع عمرو بن العاص، وكان رجلاً صالحًا من العلماء، فقال له ذلك التاجر:

يا سيدى، جئت إليك فى حاجة لك فيها ثواب ولى فيها معونة، فأسألك أن تقضى حاجتى ولا تردنى، فقال: أفعل إن شاء الله فقال:

إنى أريد الذهاب إلى الحج ومجاورة بيت الله تعالى، وعندى شىء من المال أودعه عندك حتى أرجع من الحج، فإنى أخاف عليه إن كان معى.

فأخذه الفقيه ووضعه فى مخزنه، وذهب صاحب المال إلى الحج وكان للفقيه الإمام بنات كبار ولم يكن له مال يجهزهم به للأكفاء.

فقالت له زوجته: إن هذا المال وديعة عندك تشترى به عقوداً وحليًا لبناتك ونجهزهن به ويدخلن عند أكفائهم ونستريح من همهن، فإذا حصلن عند الأزواج وجاء صاحب المال جمعنا ذلك الحلى والجواهر وجعلناه ذهبًا وبقيت بناتك عند أزواجهن.

فما زالت به حتى فعل وزوج جميع بناته، وأخرج مع كل واحدة جملة الحلى والجواهر.

فلما كان بعد ثلاث سنين، جاء صاحب المال فدخل على الإمام فى الجامع وسلم عليه ورحب به، وقال له:

وديعتك غداً تأخذها.

فقال: متى شئت.

فرجع الإمام إلى داره مهمومًا، وقال لأهله:

أما أنا فإنى غداً فى السحر، أخرج من مصر وأذهب إلى البادية بحيث لا يسمع لى خبر، فإن صاحب المال قد جاء وأنا أستحيى من الفضيحة.

فلما كان بالليل خرج الفقيه وأراد الذهاب على وجهه هاربًا فجاء إلى درب عفان، وهو مغلق، ورأى مسجد عفان مفتوحًا فدخل فى المسجد، فخرج عفان من داره متنكراً، فدخل المسجد فجلس إليه وسلم عليه وكل واحد منهما لا يعرف صاحبه، فسأله عفان، من هو وما حاله؟ فقال له الإمام، ومن أنت؟ فقال عفان، رجل غريب.

فاطمأن الإمام وقال له: أنا إمام جامع عمرو بن العاص، وقد أصابتنى مصيبة، ووصف له حاله، وقد عزمت أن أفر من هذه البلدة ولا أعود إليها خوفًا من العار.

فقال عفان: إن يسهل الله تعالى لى ولك، خير من هذه ثم قام فخرج وأغلق باب المسجد من الخارج حتى لا يخرج الإمام، ودخل داره وأخرج على رءوس العبيد أكياساً فيها من الذهب مثل ما كان عند الإمام وديعة، وقال للإمام:

خذ هذا قرضًا عندك تؤديه إلى صاحب المال إلى أن تبيع أنت حلى بناتك بحيث لا يشعر أحد.

ففرح الإمام ورجع إلى داره والمال يحمل بين يديه، وهو يحمد الله تعالى ويدعو لعفان.

فلما كان بالغداة جاء المودع، صاحب المال، فأعطاه إياه، فقال:

أيها الإمام هذا ليس عين وديعتى، وإن كان الوزن والعدد واحدًا، ولكننى لا آخذه حتى تخبرنى بما غيّرت مالى وماذا ألجأك إلى هذا.

فأخبره بالقصة على وجهها، فقال المودع:

أيها الشيخ: أما الوديعة فحق الله تعالى، كنت أطلب له مستحقًا، وقد وجدتك، فالمال حقك، ولا شكر إلا لله تعالى.

ففرح الرجل وأهل بيته، وحمدوا الله تعالى، فخرج الإمام وحمل المال إلى عفان وأخبره بالخبر، فقال له عفان: الحمد لله الذى أراح سرك ووسع عليك إن هذا المال لم أخرجه إليك ليرجع إلى، وإنما أخرجه هبة لك لأجل الله تعالى.

فصار الإمام من الأغنياء ببركة عفان، وكم لعفان مثل هذا وأكثر منه، سرًا وعلانية!.

وأمر عفان مشهور بمصر وفى جميع المغرب على ألسن المسافرين، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٠) فهو ميت خير من كثير من الملوك الأحياء الذين يبخلون بالدنيا على أنفسهم، ختم الله له ولجميع المسلمين بالخير فى الدنيا والآخرة.

ونختم هذا الكتاب بحكاية عجيبة فى أمر أسير المؤمنين، على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، وهى من أعجب الحكايات فى قصة قبره عليه السلام، وظهوره بعد الثلاثين وخمسمائة فى ناحية بلخ فى قرية كبيرة يقال لها الخير.

رأى جماعة من أهلها الصالحين النبى ﷺ فى النوم وهو يقول لهم: ابن عمى، على بن أبى طالب فى هذا الموضع، ويشير لهم إلى موضع قريب من القرية، وتواترت هذه الرؤيا عندهم، وكثر من رأى هذه الرؤيا حتى بلغوا أكثر من أربعمائة، كل واحد منهم من الصالحين من قرية الخير، ومن مواضع أخرى، فذهبوا إلى قُماج، صاحب بلخ فى زمان سنجر، وحدثوه بما رأوا وما سمعوا من النبى ﷺ، فجمع العلماء وعرض عليهم ما قالوا وما شهدوا به.

فقال العلماء، قال ﷺ: «من رآنى رأنى حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل بى».

فقال فقيه منهم: أيها الأمير، هذا محال، ورسول الله ﷺ، لا يقول المحال، على ابن أبى طالب ﷺ، قتل بالكوفة، اختلف الناس فى قبره، فمنهم من قال: دفن فى جامع الكوفة، تحت المنارة، ومنهم من قال: فى كوخ زادوة، ومنهم من قال: دفن بالغَرِىّ، وعليه بنى المشهد، فكيف يجىء إلى بلخ، مسيرة ألف فرسخ وأكثر، هذا محال.

فانصرف الناس، فلما كان نصف الليل خرج ذلك الفقيه من داره ومعه أولاده وأصحابه، وهو يصيح، إلى أن جاء إلى دار الأمير قماج، وهو يصيح ويستغيث، فأدخل خبره على قماج، فأمر بإدخاله عليه، فقال له، ما أصابك؟.

فقال، أيها الأمير، انظر إلى وجهى وجسدى، فنظروا إليه بالشمع، فإذا بوجهه قد اسود وجميع جسده من كثرة ما ضرب ولطم ولكم، وجعل يبكى.

فقال له الأمير قماج: أيها الشيخ الإمام، من فعل بك هذا؟ قال، كنت نائمًا فى بيتى، فجاء إلى جماعة من العلويين لهم ظفائر وشعور، وعليهم ثياب بيض، شباب وكهول وشيوخ وصبيان، وقالوا: أنت الذى تكذب رسول الله ﷺ، وتقول إن أمير المؤمنين ليس ها هنا؟ فأخذونى وسحبونى، وهم يسبوننى، حتى أوقفونى على قبر مفتوح فرأيت أمير المؤمنين، على بن أبى طالب جالسًا فى القبر أبيض الرأس واللحية، وقالوا: أليس هذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب؟ ثم جعلوا يضربوننى بأرجلهم وأيديهم حتى أيقنت بالموت، فقلت يا أمير المؤمنين ارحمنى، فأشار إليهم على عليه السلام بيده، فتركونى، فاستيقظت وجميع أعضائى كأنها مكسرة، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما قلته.

فلما رأى الأمير ذلك، خرج بجميع عسكره إلى تلك القرية وحفروا فى الموضع الذى أمرهم به رسول الله ﷺ فوجدوا القبر عليه لوحان من رخام، وأمير المؤمنين فى داخله، لم يذهب منه شىء البتة، وكفنه صحيح، فرآه الأمير وجميع العلماء، ووجدوا تحت خده لبنة حمراء فيها مكتوب بالأصبع، هذا محب النبى على كرم الله وجهه، فبنى عليه مشهد عظيم، أحسن وأبهى من مشهد الغرى وتلك اللبنة فى كيس من ديباج معلقة فى محراب المشهد، وأكثر أولئك الذين رأوا المنام بعد فى الحياة، والناس يزورونه من جميع بلاد خراسان وبلخ وسمرقند، ومن عجائب الأمور أن يظهر قبر أمير المؤمنين فى ناحية بلخ، ولا يعرف به إلا بعد الخمسمائة.

وقال بعض العلماء:

[كامل مرفل]:

مـــا بالغـرِيّ ســوى المــغيــره
والله أعـلـم بـالـســـــريـرهْ
مـــا قـــبـــر حـــيـــدر بالـعـــرا
قِ ولا الشـــــام ولا الـجـــــزيرهْ
الله أودع قـــــــــبـــــــره
بالخـــيـــر فـى أرض نضـيـــرهْ
بَـخْ بَخْ لـبـلـخ إذا غـــــــدت
بجـــوار ملحـــده منيـــرهْ
رؤيـا رآهـــا صـــــــــالـح
فى أمـــة منهم كـــثـــيـــرهْ
قـــــال الـنبى لـهم بـهـــــا
هذا ابن عـــمى فى الـحـفـيـــرهْ
هـــذا عـــلـــى هـــاهـــنـــا
فلتـجـهـــدوا يا أهل خـيـــرهْ
فـــاحـــتـــفـــروا واجـــتـــهـــدوا
حـــتى بـدا وجـــه الحـظيـــرهْ
فـيـــهـــا أمـيـــر المـؤمـنين
كـــالشـمس فى وقـت الظهـيـــرهْ
لم يـحـــتـكم فـيـــه البـلى
حـــاشـــا له مـن أن يضـيـــرهْ
مـــتـــوســـد مـــزبوره
فـيـــهـــا خطـوط مـســتـديرهْ
هذا مـــحـب مـــحـــمـــد
ووصـــيـــه دون العـــشـيـــرهْ

هـذا أبـو أحـــــبـــــابـه

مـــا زال فـى الدنيـــا نصـيـــره

هذا مـــبـــيـــد عـــداته

هـــذا الـــذى يـــدعـــى وزيـــره

خـــــذا خـــضـمّ علومـــــه

مـــولى البـــرية ذو البـــصـيـــره

هذا أخـــــوه وصـــــهـــــره

ولـيـــــه هـل من نـظيـــــره

صـلـى عـلـيـــــــه إلـهـنـا

وأعـــان شـبـــر شـــبـيـــره

تم الكتاب

١- مقتبسات للقزوينى من تحفة الالباب:

(لم ترد فى النسخ التى بين أيدينا أو وردت بصيغ مختلفة).

١- من كتاب عجائب المخلوقات:

تحقيق ونشر وستنفلد ليبسيك ١٨٤٨ فى جزأين - جزء ١ صفحة ١٢٤.

بحر المغرب... فصل فى جزائره

ذكر أبو حامد الأندلسى فى كتابه الذى ألفه لابن هبيرة أن بمجمع البحرين جزيرة فيها منار مبنية من الصخر الصلد الذى لا يعمل فيه الحديد، ولها أساس راسخ، وليس للمنارة باب، وعلى رأس المنارة صورة إنسان ملتحف بثوب كأنه من ذهب ويده ممدودة إلى البحر الأسود، كأنه يشير بأصبعه إلى شىء، وعلو المنارة أكثر من مائة ذراع، وقال غيره إن تلك الصورة طلسم عمله بعض الملوك صيانة لذلك الموضع من إتيان العدو، وأنه مأمون ما دام ذلك الطلسم باقيًا.

ومنها جزيرة تنيس وهى فى بحر الروم، ذكر أبو حامد الأندلسى أنها جزيرة عظيمة فيها مدن وقرى كثيرة، ومن عجائبها أنه يخرج إليها من أنواع السمك ما لا يوجد فى غيرها من ذلك البحر، ويقيم كل نوع عندهم أيامًا يصطادونه ويأكلونه ثم ينقطع ويجىء نوع آخر، وهكذا، أبدًا، وهى مائة ونيف وثلاثون نوعًا وسيأتى شرحها فى فصل البلدان إن شاء الله تعالى.

ومنها ما ذكره صاحب تحفة الغرائب، قال: فى بحر الروم جزيرة فيها أشجار وأزهار من شم منها شيئًا ينام لساعته.

ومنها ما ذكره أبو حامد الأندلسى، أن على البحر الأسود من ناحية الأندلس جبلاً عليه كنيسة من الصخر منقورة فى الجبل وعليها قبة كبيرة، وعلى القبة غراب مفرد لا يبرح فى أعلى القبة، وفى مقابل الكنيسة مسجد يزورونه ويتبركون به، ويقولون إن الدعاء فيه مستجاب، وقد شرط على القسيسين الذين يسكنون تلك الكنيسة استضافة كل مسلم يقصد ذلك المسجد، وكلما وصل أحد إلى ذلك المسجد أدخل الغراب رأسه فى رَوْزَنَه[1] على

(١) الروزنة: الكُوّة غير الناقذة.

أعلى تلك القبة التى على الكنيسة، ويصيح بعدد كل رجل صيحة، فيخرج الرهبان بالطعام إلى أهل المسجد ما يكفيهم، وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب، وزعم أولئك القسيسون أنهم ما زالوا يرون غرابًا على تلك الكنيسة ولا يدرون أين مأكله.

ومنها جزيرة جالطة قال أبو حامد الأندلسى: رأيت فى بحر الروم جزيرة يقال لها جالطة مملوءة بالغنم الجبلية مثل الجراد المنتشر لا يمكنها الفرار من الناس، فإذا وصلت المراكب إليها أخذت منها ما لا يحصى، وهى أغنام سمان كبار ونعاج وحملان، وليس فى تلك الجزيرة غير الغنم، وفيها عيون وحشيش وشجر وجبال، وهى على طريق الإسكندرية فى البحر تقصدها السفن من كل جانب، وذكر أنه لو حملت كل سفينة فى ذلك البحر منها لا تفنى لكثرة ما فيها.

ومنها من الحيوانات العجيبة سمكة كبيرة إذا نقص الماء بقيت على الطين ولا تزال تضطرب إلى ست ساعات ثم تنسلخ من شدة اضطرابها وتململها، فيظهر لها جناحان من تحت جلدها، فتطير وتتحول إلى البحر، ذكرها أبو حامد الأندلسى.

بحر الخزر... فصل من جزائره

منها ما شاهدها أبو حامد الأندلسى، قال: رأيت فى هذا البحر جبلاً من طين أسود كالقير، والبحر محيط به، وفى سنام ذلك الجبل شق طويل يخرج منه الماء، ويخرج مع ذلك الماء مثل صنجة الدانق من الصفر، وربما يكون أكبر وأصغر يحملها الناس إلى الآفاق للتعجب.

ومنها جزيرة الحيات قال أبو حامد: إنها بقرب الجبل الأسود الذى ذكر، وهى جزيرة امتلأت من الحيات، وفيها حشيش كثير لا يقدر أحد أن يقع رجله على الأرض لكثرة ما فيها من الحيات الملتفة بعضها على بعض، وطير البحر يبيض فى وسط الحيات، والحيات لا تؤذى بيضه، ورأيت الناس يأخذون فى أيديهم القصب القوى والعصا ويزيلون به الحيات من الأرض حتى يضعوا أقدامهم. ويمشوا بين الحيات ويأخذوا بيض الطير وأفراخه، والحيات لا تؤذى أحدًا منهم.

جزيرة الجن قال أبو حامد: هى جزيرة ليس بها أنيس ولا شىء من الوحش، وكانوا يقولون غلب عليها الجن ويُسمع فيها أصوات ولا يجسر أحد أن يقربها.

ومنها جزيرة سياه كوه: قال أبو حامد: هى جزيرة كبيرة بها عيون وأشجار وغياض ومياه عذبة وبها دواب وحش يرتفع منها الفوه ويحمل إلى سائر البلدان، وهى تقارب شرقى البحر، انتقل إليها قوم من الغزية الترك لاختلاف وقع بين قبائلهم، فانفردوا عنهم إلى هذه الجزيرة.

ومنها جزيرة الغنم: قال سلام الترجمان: رسول الواثق بالله، أمير المؤمنين، إلى ملك الخزر: رأينا جزيرة فيما بين الخزر وبلغار فيها من الأغنام الجبلية، مثل الجراد لا يمكنها الفرار لكثرتها، فإذا وصلت السفن إلى تلك الجزيرة، اصطادوا منها ما شاء الله، وأنها نعاج وحملان سمان ما رأيت فى تلك الجزيرة حيوانًا غيرها، وفيها عيون وحشيش وأشجار كثيرة، فسبحان من لا تحصى نعمه.

جبل سَبَلاَن: قال أبو حامد الأندلسى: هو جبل بأذربيجان، بقرب مدينة أَرْدَبِيل، من أعلى جبال الدنيا، روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «من قرأ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كتب له من الحسنات بعدد كل ورقة ثلج تسقط على جبل سبلان، قيل: وما سبلان يا رسول الله؟ قال: «جبل بين أرمينية وأذربيجان، عليه عين من عيون الجنة، وفيه قبر من قبور الأنبياء» وقال أيضًا: «على الجبل عين عظمية، ماؤها جامد لشدة البرد، وحول الجبل عيون حارة يقصدها المرضى، وفى حضيض الجبل شجر كثير، وبين تلك الشجر حشيش كثير لا يستطيع شىء من الحيوان أن يأكل من تلك الشجر ورقة، ومتى أكل منها يموت من ساعته» قال: ولقد رأيت من البهائم الخيل والحمر والبقر والغنم تقصدها، فإذا قربت منها فرت، حتى العصافير وكنت أظن أن الجن تحميها.

قال: وفى سفح الجبل قرية اجتمعت بقاضيها، أبى الفرج عبد الرحمن القصيرى الأردبيلى، فقال: ما هى إلا عمل الجن، وذكر أنه بنى المسجد المعروف فى القرية، فاحتاج إلى قواعد الأعمدة للمسجد فأصبح يومًا وعلى باب المسجد قواعد من الصخر المنحوت، محكمة الصنع، من أحسن ما يكون.

عين غرناطة: قال أبو حامد الأندلسى: بقرب غرناطة من أرض الأندلس، كنيسة عندها عين ماء وشجرة زيتون يخرج الناس إليها ويقصدون تلك الشجرة فى يوم معلوم من السنة،

فإذا طلعت الشمس فى ذلك اليوم، فاضت تلك العين بماء كثير ويظهر على الشجرة زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتونًا ويكبر ويسود فى يومه، ويؤخذ من ذلك الزيتون ما قدر على أخذه، وكذلك من ماء تلك العين بماء للتداوى، قلت: أما حديث شجرة الزيتون فمشهور، وإنما الكلام فى محلها؛ فحدثنى الفقيه سعيد بن عبد الرحمن الأندلسى أنها بشقورة، وقال أحمد بن عمر العذرى، صاحب المسالك والممالك الأندلسية إنها بلورقة، وقال أبو حامد إنها بغرناطة، وكلهم من أهل الأندلس والجمع بين أقاويلهم غير ممكن.

٢- وفى كتاب آثار البلاد وأخبار العباد:

(طبع دار صادر ـ بيروت ١٩٦٩)

جالطة: ص ١٧٥ جزيرة على مرسى طبرقة من أرض إفريقية، طولها ثمانية أميال، وعرضها خمسة أميال، بها ثلاث أعين عذبة الماء، وبها مزارع وآثار قديمة، وبها من الأيل ما لا يحصى، حدثنى الفقيه، سليمان الملتانى، أن بها عنزا كثيرة إنسية توحشت، إذا قصدها قاصد أهوت نفسها من جبل شاهق، ووقفت على قوائمها بخلاف الأيّل، فإنها تقف على قرونها.

جيزة: ص ١٨٢ ناحية بمصر، قال أبو حامد الأندلسى: بها طلسم للرمل، وهو صنم، والرمل خلفه، إلى ناحية المغرب، مثل البحر، تأتى به الرياح من أرض المغرب، فإذا وصل إلى ذلك الصنم لا يتعداه، والقرى والرساتيق والمزارع والبساتين بين يدى ذلك الصنم، والرمل العظيم خلفه، وكان مكان ذلك الرمل مدن وقرى علاها الرمل وغطاها، وتظهر رءوس الأعمدة الرخام والجُدُر العظام فى وسط ذلك الرمل، ولا يمكن الوصول إليها.

قال: وكنت أصعد بعض تلال الرمل بالغداة، إذ تلبد الرمل بالطل فى الليل، فرأيت الرمل مثل البحر، لا يتبين آخره البتة، ورأيت مدينة فرعون موسى عليه السلام، وهى مدينة عظيمة بنيانها وقصورها أعظم وأحكم من مدينة فرعون موسى، عليه السلام، والرمل قد غطى أكثرها، فظهرت رءوس الأعمدة التى كانت فى القصور، وهناك سجن موسى عليه السلام فى جوف حائط باب قصر الملك، والحائط منحوت من الصخر، فصعدت فى درج

فى نفس الحائط، كدرجات المنبر، من الصخر إلى غرفة فى نفس الجدار، مشرفة على النيل، وسطح تلك الغرفة وسقفها من ألواح الصخر المنحوت مثل الخشب.

وفى الغرفة باب يفضى إلى بيت عظيم تحت الغرفة، وهو سجن يوسف عليه السلام وعلى جدار الغرفة مكتوب: هاهنا عبر يوسف الرؤيا، حيث قال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (سورة يوسف: ٤١).

سبتة: (ص ٢٠١) بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على ساحل البحر فى بر البربر، وهى ضاربة فى البحر داخلة فيه، قال أبو حامد الأندلسى: عندها الصخرة التى وصل إليها موسى، وفتاه، يوشع عليه السلام، فنسيا الحوت المشوى، وكانا قد أكلا نصفه فأحيا الله تعالى، النصف الآخر، فاتخذ سبيله إلى البحر عجبا، وله نسل إلى الآن فى ذلك الموضع، وهى سمكة طولها أكثر من ذراع، وعرضها شبر، وأحد جانبيها صحيح، والجانب الآخر شوك وعظام وغشاء رقيق على أحشائها، وعينها واحدة، ورأسها نصف رأس، فمن رآها من هذا الجانب استقذرها ويحسب أنها مأكولة ميتة، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى المحتشمين، واليهود يقددونها ويحملونها إلى البلاد البعيدة للهدايا.

عين شمس: (ص: ٢٢٥) ومن عجائب عين شمس أن يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى، وبها زرع البلسان وليس فى جميع الدنيا شجرته ويستخرج منها دهنه، قال أبو حامد الأندلسى: بعين شمس تماثيل عملتها الجن لسليمان عليه السلام، بها منارة من صخرة واحدة من الرخام الأحمر منقوط بسواد، ومربعة أكثر من مائة ذراع، على رأسها غشاء من النحاس، والوجه الذى إلى مطلع الشمس من ذلك الغشاء، فيه صورة آدمى على سرير، وعلى يمينه وشماله صورتان كأنهما خادمان، ويترشح من تحت ذلك الغشاء أبدا ماء من تلك المنارة، ينبت الطحلب الأخضر على موضع مسيله من تلك المنارة، وينزل مقدار عشرة أذرع، ولا يتعدى ذلك القدر، ولا ينقطع نهاراً ولا ليلاً.

قال: وكنت أرى لمعان الماء على تلك الصخرة وأتعجب من ذلك، فإنه ليس بقرب تلك المدينة نهر ولا عين، وإنما كان شربهم من الآبار، والله أعلم بالأمور الخفية.

ص ٢٨٤: الفقرة التى سبق اقتباسها من كتاب عجائب المخلوقات والتى تتعلق بجبل سبلان.

أردبيل ص ٢٩١: ومن عجائبها ما ذكره أبو حامد الأندلسى: قال: رأيت خارج المدينة فى ميدانها حجرًا كبيرًا كأنه معمول من حديد أكبر من مائتى رطل، إذا احتاج أهل المدينة إلى المطر حملوا ذلك الحجر على عجلة ونقلوه إلى داخل المدينة فينزل المطر ما دام الحجر فيها، فإذا خرج منها سكن المطر.

والفأر بها كثير جدًا، بخلاف سائر البلاد، وللسنانير بها عزة، ولها سوق تباع فيه، ينادون عليها: إنها سنورة صيادة مؤدبة، لا هرابة ولا سراقة! ولها تجار وباعة و[illegible]لون، ولها راضة وناس يعرفون.

خوارزم ص ٥٢٦: وبها جبل على ثمانية فراسخ من المدينة، قال أبو حامد الأندلسى: هذا الجبل فيه شعب كبير، وفى الشعب تل عال، وعلى التل شبه مسجد عليه قبة له أربعة أبواب آزاج كبار، ويتراءى للناظر كأن بنيان ذلك المسجد من الذهب ظاهره وباطنه، وحوله ماء محيط بالتل راكد لا مادة له إلا من ماء المطر، والثلج زمان الشتاء، وأن ذلك الماء ينقص ويزيد ذراعًا فى الصيف والشتاء فى رؤية العين والماء ماء عفن نتن عليه طحلب لا يستطيع أحد أن يخوضه، ومن دخل فى ذلك استلبه الماء ولا يظهر أثره البتة، ولا يُدرى أين يذهب، وعرض الماء مقدار مائة ذراع.

غرناطة ص ٥٤٧: وهى نفس قصة الكنيسة التى اقتبسناها سابقًا من «عجائب المخلوقات» والقصة أوردها ابن الوردى بصيغة مختلفة قليلاً.

مدينة النحاس ص ٥٦١: وقال أبو حامد الأندلسى: دور مدينة النحاس أربعون فرسخًا وعلو سورها خمسمائة ذراع، فيما يقال، ولها كتاب مشهور، فى كتابها أن ذا القرنين بناها، والصحيح أن سليمان بن داود عليه السلام، هو الذى بناها، وليس لها باب ظاهر، وأساسها راسخ، وأن موسى بن نصير وصل إليها فى جنوده، وبنى إلى جانب السور بناء عاليًا متصلاً به، وجعل عليه سلمًا من الخشب متصلاً بأعلى السور، وندب إليه من أعطاه مالاً كثيرًا، وأن ذلك الرجل لما رأى داخل المدينة ضحك وألقى بنفسه فى داخل المدينة،

وسمعوا من داخل المدينة أصواتًا هائلة، ثم ندب إليه آخر، وأعطاه مالاً كثيراً وأخذ عليه العهد أن لا يدخل المدينة ويخبرهم بما يرى، فلما صعد وعاين المدينة ضحك وألقى نفسه فيها، وسمعوا من داخلها أصواتًا هائلة أيضًا، ثم ندب إليه رجلاً شجاعًا وشد فى وسطه حبلاً قويًا، فلما عاين المدينة ألقى نفسه فيها فجذبوه حتى انقطع الرجل من وسطه، فعلم أن فى المدينة جنا، يجرون من علا على السور، فأيسوا منها وتركوها.

وذكر أبو حامد الأندلسى فى وصف مدينة النحاس قصيدة منها:

وَتَقَبَّلَ الملكوتُ ربعى حيثما
فلك البروج يجر فى سجداته
أرض بحيرة التى دانت بها
جن الفلا والطير فى غدواته
والريح يحمله الرخاء فإنما
شهرين مطلعها إلى روحاته
كالطود مبهمة بِأْسٌ راسخ
أعيا البرية من جميع جهاته
والقطر سال بها فصاغ مدينة
عجبا يَحَارُ الوهم دون صفاته
حصن النحاس أحاط من جنباتها
وعلى غلو السهم فى غلواته
فيها ذخائره وجل كنوزه
والله يكلأها إلى ميقاته
فى الأرض آيات فلا تك منكراً
فعجائب الأشياء فى آياته

موغان ص ٥٦٤: ولاية واسعة بها قرى ومروج بأذربيجان، على يمين القاصد من أردبيل إلى تبريز... قال أبو حامد الأندلسى: رأيت بها قلعة عظيمة لها رساتيق كثيرة، وقد

هرب عنها أهلها لكثرة ما بها من الثعابين والحيات، وقال رأيت عند اجتيازى بها شجاعًا عظيمًا ففزعت منه.

بَاكُوَيه ص ٥٧٨: مدينة بنواحى دربند بقرب شروان، بها عين نفط عظيمة... من عجائبها ما ذكره أبو حامد الأندلسى، أن بها أرضًا ليس فى ترابها حرارة كثيرة يجدها الإنسان، والناس يصيدون الغزلان وغيرها ويقطعون لحمها ويجعلونها فى جلودها مع الملح، وما شاءوا من الأبازير، ويأخذون أنبوبة من القصب الغليظ النافذ، ويشدون القصب على جلد الصيد ويدفنونه تحت ذلك التراب ويتركون القصب خارجًا فتخرج مائية اللحم كلها من القصبة، فإذا نفذت المائية، علموا أن اللحم قد نضج فيخرجونه وقد تهرأ.

زره كران ص ٥٩٥: معناه: صناع الدروع: قريتان فوق باب الأبواب على تل عال، وحواليه قرى ومزارع ورساتيق، وجبال وآجام... وحكى أبو حامد الأندلسى أنه سمع أهل دربند أنهم جهزوا ذات مرة العساكر وذهبوا إلى زره كران، فذهبوا حتى دخلوا القرية، فخرج من تحت الأرض رجال دخلوا تلك البيوت، فهبت ريح عاصف، وجاء ثلج كثير حتى لم يعرف أحد من تلك العساكر صاحبه، فجعل بعضهم يقتل بعضًا، وضلوا عن الطريق وهلك منهم خلق كثير، ونجا بعضهم بعدما عاينوا الهلاك.

بُلْغَار ص ٦١٢: مدينة على ساحل بحر مانيطس، قال أبو حامد الأندلسى: هى مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر، وسورها من خشب البلوط، وحولها من أمم الترك ما لا يعد ولا يحصى وبين بلغار وقسطنطينية مسيرة شهرين، وبين ملوكهم قتال: يأتى ملك بلغار بجنود كثيرة ويشن الغارات على بلاد قسطنطينية، والمدينة لا تمتنع منهم إلا بالأسوار.

قال أبو حامد الأندلسى: طول النهار ببلغار يبلغ عشرين ساعة، وليلهم يبقى أربع ساعات، وإذا قصر نهارها ينعكس ذلك، والبرد عندهم شديد جدًا، ولا يكاد الثلج ينقطع عن أرضهم صيفًا وشتاء.

حكى أبو حامد الأندلسى: أن رجلاً صالحًا دخل بلغار وكان ملكها وزوجته مريضين يائسين من الحياة، فقال لهما: إن عالجتكما تدخلان فى دينى؟ قالا: نعم! فعالجهما فدخلا فى دين الإسلام، وأسلم أهل تلك البلاد معهما، فسمع بذلك ملك الخزر فغزاهم بجنود

عظيمة، فقال ذلك الرجل الصالح: لا تخافوا، واحملوا عليهم، وقولوا: الله أكبر! الله أكبر! ففعلوا ذلك وهزموا ملك الخزر، ثم بعد ذلك صالحهم ملك الخزر، وقال: إنى رأيت فى عسكركم رجالاً كباراً على خيل شهب يقتلون أصحابى، فقال الرجل الصالح: أولئك جند الله! وكان اسم ذلك الرجل بلار، فعربوه فقالوا: بلغار، هكذا ذكر القاضى البلغارى فى تاريخ بلغار، وكان من أصحاب إمام الحرمين، وملك بلغار فى ذلك البرد الشديد يغزو الكفار ويسبى نساءهم وذراريهم، وأهل بلغار أصبر الناس على البرد، وسببه أن طعامهم العسل ولحم القندر والسنجاب.

وحكى أبو حامد أنه رأى بأرض البلغار شخصًا من نسل العادين الذين آمنوا بهود عليه السلام، وهربوا إلى جانب الشمال، كان طوله أكثر من سبعة أذرع، كان الرجل الطويل وهو يصل إلى حقوه، وكان قويًا يأخذ ساق الفرس فيكسرها، ولا يقدر غيره أن يكسرها بالفأس، وكان فى خدمة ملك البلغار، وهو قرّبه واتخذ له درعًا على قدره وبيضة كأنها مرجل كبير، ويأخذ ما معه فى الحروب على عجلة، لأن الجمل ما كان يحمله، ويمشى إلى الحرب على عجلة كيلا يتعب من المشى، ويقاتل رجلاً بخشبة فى يده طويلة لا يقدر الرجل الواحد على حملها، وكانت فى يده كالعصا فى يد أحدنا، والأتراك يهابونه وإذا رأوه مقبلاً إليهم انهزموا، ومع ذلك كان لطيفًا مصلحًا عفيفًا.

وفى كتاب سير الملوك أن القوم الذين آمنوا بهود، عليه السلام، وهربوا إلى بلاد الشمال، وأمعنوا فيها، توجد بأرض بلغار عظامهم.

قال أبو حامد: ورأيت سنا واحدة عرضها شبران وطولها أربعة أشبار، وجمجمة رأسه كالقبة، وتوجد تحت الأرض أسنان مثل أنياب الفيلة، بيض كالثلج، ثقيلة فى الواحدة منها مائتا منّ، لا يدرى لأى حيوان هى، فلعلها سنّ دوابهم، تحمل إلى خوارزم.

والقفل متصلة من بلاد البلغار إلى خوارزم إلا أن طريقهم فى واد من الترك، ويُشترى من تلك، الأسنان فى خوارزم بثمن جيد تتخذ منها الأمشاط والحقاق وغيرهما، كما تتخذ من العاج، بل هى أقوى من العاج، لا تتكسر البتة.

وحكى من الأمور العجيبة أن أهل ويسو ويورا إذا دخلوا بلد البلغار، ولو فى وسط

الصيف يبرد الهواء، ويصير كالشتاء يفسد زروعهم، وهذا مشهور عندهم، لا يخلون احدا يدخل بلغار من أهل تلك البلاد.

وبها نوع من الطير لم يوجد فى غيرها من البلاد، قال أبو حامد: هو طير ذو منقار طويل، يكون منقاره الأعلى مائلاً إلى اليمين ستة أشبار، وإلى اليسار ستة أشبار، مثل لام ألف، وعند الأكل ينطبق، ذكر أن لحمه نافع لحصاة الكلى والمثانة، وإذا وقعت بيضته فى الثلج أوالجمد أذابته كالنار.

يورا ص ٦٢٠: بلاد بقرب بحر الظلمات، قال أبو حامد الأندلسى: قال بعض التجار: النهار عندهم فى الصيف طويل جدًا حتى أن الشمس لا تغيب عنهم مقدار أربعين يومًا، وفى الشتاء ليلهم طويل جدًا حتى تغيب الشمس عنهم مقدار أربعين يومًا، والظلمات قريبة منهم، وحكى أن أهل يورا يدخلون تلك الظلمة بالضوء، فيجدون شجرة عظيمة، مثل قرية كبيرة، وعليها حيوان يقولون إنه طير، وأهل يورا ليس لهم زرع ولا ضرع، بل عندهم غياض كثيرة، وأكلهم منها ومن السمك والطريق إليهم فى أرض لا يفارقها الثلج أبدًا.

وحكى أن أهل بلغار يحملون السيوف من بلاد الإسلام إلى ويسو، وهى سيوف لم يتخذ لها نصال، بل تصل كما تخرج من النار وتسقى، فإن علق السيف بخيط ونقر بأصبع سمع له طنين، فذلك السيف يصلح أن يحمل إلى بلاد يورا ويشتريه أهل يورا بثمن بالغ، ويرمونه فى البحر المظلم، فإذا قطعوا ذاك، أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجمل العظيم، تطردها سمكة أخرى أكبر منها، تريد أكلها، فتهرب منها حتى تقرب من الساحل، فتصير فى موضع لا يمكنها الحركة فيه، فتتشبث بالرمل، فيعرف أهل يورا، فيذهبون إليها فى المراكب، فكل من ألقى بالسيف يجتمع عليها ويقطع من لحمها، وربما يكثر ماء البحر بالمد، فترجع السمكة إلى البحر بعدما قطع منها من اللحم ما يملأ ألف بيت، وربما تبقى عندهم زمنًا طويلاً مؤنتهم فيقطعون منها، وإذا لم يبق فى البحر من تلك السيوف لم تخرج لهم السمكة، فيكون عندهم الجدب والقحط.

وحكى أن فى بعض السنين خرجت عليهم هذه السمكة، فاجتمع القوم عليها وثقبوا أذنها، وجعلوا فيها حبلا ومدوها إلى الساحل، فانفتحت أذن السمكة وخرجت من داخلها جارية تشبه الآدميين، بيضاء حمراء سوداء الشعر عجزاء من أحسن النساء وجها، فأخذها

أهل يورا، وأخرجوها إلى البر، وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وقد خلق الله تعالى فى وسطها جلداً ضعيفًا كالثوب من سرتها إلى ركبتها لتستر عورتها، فبقيت عندهم مدة، وأهل يورا إن لم يلقوا السيف فى البحر لا تخرج السمكة، فيجوعون لأن قوتهم من هذا.

٣- مقتبسات ابن الوردى من التحفة:

١- فى كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب:

طبع بيروت ١٩٩١م

جزيرة الكنيسة كذا ص ١٤٨:

ذكر أبو حامد الأندلسى أن بهذه الجزيرة جبلاً على شاطئ البحر الأسود عليه كنيسة منقورة فى الصخر وعليها قبة عظيمة، وعلى تلك القبة طائر غراب يطير ويحط ولا يزال عليها، ومقابل القبة مسجد يزوره المسلمون ويقولون إن الدعاء فيه مستجاب، وقد شرط على أهل تلك الكنيسة ضيافة من يزور ذلك المسجد من المسلمين، فإذا قدم زائر للمسجد أدخل ذلك الغراب رأسه إلى داخل الكنيسة وصاح صيحات بعدد الزوار، إن كان واحداً فواحدة، أو اثنين فاثنتين أو عشرة فعشرة، لا يخطئ أبداً فينزل أهل تلك الكنيسة بالضيافة إليهم على عددهم لا يزيدون ولا ينقصون، وذكر القسيسون أنهم ما زالوا يرون ذلك الغراب ولا يدرون من أين مأكله ومشربه، وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب.

فصل فى بحر الخزر ص ١٥٢:

وبهذا البحر عجائب كثيرة، منها ما ذكره أبو حامد عن سلام الترجمان، رسول الخليفة إلى ملك الخزر، قال: لما توجهت من عند الخليفة إليهم أقمت عندهم مدة فرأيتهم يومًا قد اصطادوا سمكة عظيمة فجذبوها بالكلاليب والحبال، فانتفخت أذن السمكة فخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر سوداؤه حسنة الصورة طويلة القامة كأنها القمر البدر، وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وفى وسطها غشاء لحمى كالثوب الضيق من سرتها إلى ركبتها كأنه إزار مشدود عليها، فما زالت كذلك حتى ماتت.

فصل فى بحر المغرب حوت موسى ص ١٤٩.

قال أبو حامد: رأيت سمكة تعرف بنسل الحوت فى مدينة سبتة، وهو الحوت المشوى الذى صحبه موسى ويوشع حين سافرا فى طلب الخضر عليه السلام، وهى سمكة طولها ذراع وعرضها شبر، وأحد جانبيها شوك وعظام وجلد رقيق، على أحشائها، ورأسها نصف رأس بعين واحدة، فمن رآها من هذا الجانب استقذرها، ونصفها الآخر صحيح بهيج، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى الرؤساء، سيما اليهود.

وسمكة كأنها قلنسوة سوداء، قال أبو حامد: رأيت هذه السمكة وفى جوفها شبه المصارين ولا رأس لها ولا عين، ولها مرارة كمرار البقر سوداء، فإذا صادها أحد تحركت فيسود ما حولها من الماء حتى يبقى كالحبر الدخانى، وأظنه من مرارتها، فيؤخذ ذلك الماء ويكتب به فى الورق وهو أحسن من الحبر وأعظم سواداً وأثبت وجوداً، وأبيض منه.

جبل سبلان ص ١٨٤:

قال أبو حامد الأندلسى: على رأس هذا الجبل عين عظيمة، مع غاية ارتفاعه ماؤها أبرد من الثلج، وكأنها شيب بالعسل لشدة عذوبته، وبجوف الجبل ماء يخرج من عين يسلق البيض لحرارته، يقصدها الناس لمصانحهم، وبحضيض هذا الجبل شجر كثير ومراع، وشىء من حشيش لا يتناوله إنسان ولا حيوان إلا مات لساعته (وبعد هذا أورد ما ذكره القزوينى عن نفس الحشيشة التى ذكر أنه رآها وسأل عنها قاضى المنطقة واسمه أبو الفرج عبد الرحمن الأردبيلى).

٤- مقتبسات أحمد بن على القلقشندى:

١- صبح الأعشى للقلقشندى:

٥/ ٦٢ وقد وصف محمد بن عبد الرحمن الأُقليشى هذه المملكة الهند فى كتابه «تحفة الألباب» فقال: «الملك العظيم والعدل الكثير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرضا الدائم، والأمن الذى لا خوف معه فى بلاد الهند، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة والطب والهندسة والصناعات العجيبة، ثم قال: وفى جبالهم وجزائرهم ينبت شجر

العـود والكافـور وجمـيع أنواع الطيـب، كالقـرنفل، والسنبـل، والدار صيني، والـقرفـة والسَّليخة والقاقلة، والكَبَابة، والبَسْبـاسة، وأنواع العقاقير، وعندهم غزال المسك، وسنور الزَّباد، هذا مع ما لهذه المملكة من اتساع الأقطار، وتباعد الأرجاء وتنائى الجوانب.